نحويون

قدماء ومحدثون

بسم الله الرحمن الرحيم

العنوان : نحويّون قُدَماء ومُحدَثون
تأليف : الدكتور مازن المبارك
عدد الصفحات : ٧٩ صفحة
قياس الصفحة : ١٧ × ٢٥سم
عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة
التنضيد والطباعة : زياد ديب السروجي
I S B N : 978 - 9933 - 406 - 18 - 9

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار لا تعني بالضرورة تَبَنّي الأفكار الواردة فيها ؛ وهي تُعَبِّر عن آراء أصحابها واجتهاداتهم.

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دَارُ البَشَائِر
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ شارع ٢٩ أيار ـ جادة كرجية حداد
هاتف : ٢٣١٦٦٦٨ ـ ٢٣١٦٦٦٩
ص. ب ٤٩٢٦ سورية ـ فاكس ٢٣١٦١٩٦
الموقع : www.daralbashaer.net
البريد الإلكتروني : info@daralbashaer.net

الطَّبعة الأولى
١٤٣١ هـ = ٢٠١٠م

نحويون

قدماء ومحدثون

الدكتور مازن المبارك

دار البشائر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

اللهمَّ أحمدك بجميع محامدك ، وأسألك أن تصلّي وتسلّم على سيّدنا محمد خاتم رسلك وأنبيائك . اللهمَّ صِلْني بأسبابك طاعةً وعبادة وقُرباً ، وصلْني بمن تحب من عبادك أخوَّةً وإرشاداً وحبّاً .

اللهم ارحم من سبق إلى نشر أخبار الصالحين ليكونوا لنا قدوة ، وأقدرنا على نشر حياة العلماء العاملين ليكونوا لمن بعدهم أُسوة .

وبعد ، فمن أبرز ما عُرف عن العرب اهتمامهم بالأنساب وأخبار الرجال ، ومن أبرز ما ألّفوه من الكتب والأسفار كتب التراجم والطبقات ، وقد أخذت كتب تراجم أعلام العربية حيّزاً كبيراً من المكتبة العربية ؛ فمن كتاب (مراتب النحويين) لأبي الطيّب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) إلى (أخبار النحويين البصريين) للسيرافي (ت ٣٦٨ هـ) إلى (طبقات النحويين واللغويين) للزُّبيدي (ت ٣٧٩ هـ) إلى (إنباه الرواة على أنباه النحاة) للقفطي (ت ٦٤٦ هـ) إلى (البُلغة في أئمة اللغة) للفيروزآبادي (ت ٨٧١ هـ) إلى (بغية الوعاة في أخبار اللغويين والنحاة) للسيوطي (ت ٩١١ هـ) ، إضافة إلى من ذكرت أخبارهم في كتب التراجم العامة كمعجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت

الحمـوي (ت ٦٢٦ هـ) وكتـاب (وفيـات الأعيـان) لابـن خلّكـان (ت ٦٨١ هـ) وغيرهما .

وتابع العلماء والمؤلفون في العصر الحديث التأليف في التراجم وأخبار الرجال ، وكان منهم من أطال كالشيخ عبد الرزاق البيطار (ت ١٩١٦ م) في كتابه (حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر) ، ومنهم من أوجز كخير الدين الزركلي (ت ١٩٧٦ م) في كتابه (الأعلام)، وعمر كحّالة (١٩٨٧م) في كتابه (معجم المؤلّفين) ، على اختلاف أساليبهم واشتراطاتهم لمن يترجمون لهم . ووضع بعض المعاصرين كتباً في أخبار العلماء عامّة ، وكان منهم من اقتصر على علماء قطر بعينه ، ومنهم من اقتصر على علماء قرن واحد .

وقد طلب إليّ صديق منذ سنوات أن أكتب له مقالات صحفية تترجم لبعض أعلام العربية ، تقدّمهم إلى القرّاء وتحبِّبهم إليهم ، وتنشر أخبارهم . وتحيي بين الناس ذكرهم وآثارهم ، وتشدّ الطلّاب إلى متابعة القراءة عنهم واستقصاء أخبارهم ، فنزلت عند رغبته ، واستجبت لطِلْبته ، ثم رأيت اليوم أن أجمع ما بقي عندي مما نشرته ، وأن أضيف إلى تراجم القدماء تراجم بعض المحدثين والمعاصرين من أعلام العربية لأني رأيتهم أبعد عن ذاكرة الناس عامّة والطلّاب خاصة على قربهم ومعاصرتهم ! ورأيت عشرات الرسائل الجامعية عن القدماء من علمائنا حتى إن بعضهم كان موضوعاً لغير ما رسالة من الرسائل الجامعية ، وتعدّدت الرسائل عن بعضهم ، وتنافس الدارسون في تفصيل حياتهم ووصف آثارهم وإبراز آرائهم ، كما هو

الحال فيما كتب عن الفارسي وابن جني وابن هشام والسيوطي ، وأما المحدَثون والمعاصرون فكانت معاصرتهم حجاباً من جهة ، وكانت قلّة المصادر عن أخبارهم حائلاً دون إقدام الطلاب على الكتابة عنهم . ولعل ذلك لأن كثيراً من أصحاب الرسائل الجامعية يطيلون في الحديث عن عصر العالم ، ويفصّلون أخبار شيوخه وتلامذته ورحلاته ، ويعدّدون آثاره ، فإذا وصلوا إلى الحديث عن (نحوه) ومنهجه في عرضه ومناقشة آرائه وما تفرّد به من بين النحويين ـ وهو لبّ الموضوع وجوهره ، وهو الدافع إلى البحث والدراسة ـ أصاب الباحثَ العِيُّ وضعف القلم ، وفترت الهمّة ، وانقطع العزم !

وبعد ، فلم يكن الغرض مما كتبتُ البحثَ والاستقصاء ، ولا الجمع والاستيعاب ، بل كان غرضي أن أختار عدداً من النحويين المحدثين ، أضيف الحديث عنهم إلى من كتبت عنهم من القدماء .

اخترت سبعة من القدماء الذين كتبت عنهم ، واخترت سبعة من المحدَثين ، ذكرت طرفاً من حياتهم وتراجمهم ، وأبرز آثارهم ، ولم أُعنَ بوصفها فهي مبذولة لطالبيها ، متروكة لطلاب الدراسات العليا ليتخذوا منها موضوعات لرسائلهم . إن بعض من ترجمت لهم أو كتبت عنهم جديرون برسائل جامعية موسّعة ، وإن بعضهم جديرون بأن تدرس أساليبهم في التأليف وطرائقهم في التدريس ، فلقد عاصرهم عدد كبير منّا ، وعرفهم طلاّبهم عن قرب ، وأدركوا مدى نجاح كل منهم في تدريس العربية ومناقشة مسائلها ، وعرفوا موقف كل منهم من الشواهد النحوية ومدى عنايته بها أو الأخذ بها أو

الاحتجاج بها . . . وهي كلّها أمور لم يكن يُعنى بها القدماء من الدارسين ومؤلفي كتب الرجال ؛ لقد وجّهوا عنايتهم إلى مؤلَّفات النحويّ ، وإلى منهجه وآرائه وبيان مذهبه النحوي ، وقلّ من عني منهم بطريقة نقله للعلم ، أو بيان أسلوب تدريسه ، ونحن اليوم في حاجة إلى معرفة طرائق تدريس النحو التي اتبعها العلماء والنحاة من المدرّسين المعاصرين ، إننا في حاجة إلى معرفة أسلوب كل منهم في التعليم ، ومدى نجاحه في إصابة غرضه وتحقيق غايته ، إننا في حاجة إلى معرفة مناهجهم في التأليف ؛ ندرسها ونوازن بينها ، وقد كان لكل منهم منهج في البحث وأسلوب في العرض ؛ فمنهج حفني ناصف وزملائه القائم على الإيجاز وإهمال الشواهد غير منهج الغلاييني في « جامع الدروس » ، ومنهج الغلاييني في جعل كتابه يخرج بخطّين مختلفين ؛ أحدهما كبير واضح للمتن أو لذكر القاعدة ، والآخر خط صغير يأتي بين السطور للتوضيح والتعليق ، يشبهه أسلوب عبّاس حسن في (النحو الوافي) إلا أنه موسوعة أكبر واستقصاء أتمّ ، وزاد أنه فصل بين الخطّ الكبير في متن الكتاب ، والخط الصغير في آخر الموضوع تحت عنوان (زيادة وتفصيل) ، وذلك لتلبية حاجات الدارسين على اختلافهم واختلاف مستوياتهم العلمية . . . وكذلك كان منهج الأفغاني في الإيجاز والاستشهاد غير منهج الآخرين من نظرائه .

وأما أسلوب الأستاذ طربوش في « مسالك التراث في النحو

والصرف » فأسلوب فريد[1] .

لقد كانوا معلّمين كما كانوا علماء ، وما كل عالم بمعلِّم ، أفادوا من خبرتهم في التدريس والتعليم ، فوضع كل منهم عصارة تجربته في كتابه ، وخلاصة خبرته في طريقة تدريسه . ونحن اليوم في حاجة إلى دراسة مناهجهم في البحث وأساليبهم وطرائقهم في التدريس ، ومعرفة ما وصلت إليه على أيديهم ، أو معرفة ما وصلوا إليه بها من تقريب العلم وتوضيح قواعده .

إن كثيراً ممن تحدّثوا عن تجديد النحو ، أو دعوا إليه ، انتهوا إلى أن التجديد يجب ألاَّ يمسّ القواعد والأصول ، بل يجب أن يتناول طريقة العرض ، وطريقة التدريس ، وأن يكون بالأسلوب الميسَّر السهل واللغة الواضحة ، ويجب أن يميز بين ما يعطى للطلاب والدارسين عامّة على اختلاف اختصاصاتهم وبين ما يعطى للمختصّين . . . ويحسن أن توجَّه العناية إلى دراسة بعض الموضوعات على أنها أساليب لغوية ذات دلالات معيَّنة يقيس المتعلم عليها دون الحاجة إلى الخوض في تفصيلات إعرابها وتأويلاتها[2] .

إن دفع الطلاب النابهين والجادّين إلى الخوض في هذه الموضوعات وأمثالها وبحثها في رسائلهم الجامعية أولى وأجدى من

---

(١) انظر الحديث عنه في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . المجلد (٨٣) الجزء (٤) .

(٢) انظر « التجديد في قواعد العربية ومناهجها » في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . المجلد (٨٤) الجزء (١) .

العمل في تحقيق رسالة مخطوطة ليس فيها إلا كلام معاد كرّره غير واحد من العلماء ، وجاء في كتب السابقين . إنه لم يعد مقبولاً أخذ درجة علمية بتحقيق رسالة ليس فيها جديد يضاف إلى العلم الذي تبحث فيه ، وأرى أنه يجب أن يضاف إلى كل رسالة جامعية تقوم على تحقيق مخطوط فصلٌ يقع في آخرها يكون عنوانه « ما أضافه الكتاب المحقَّق إلى العلم » أو « ما أضافه النصّ المحقق من جديد » أو ما شابه ذلك ، وإلاَّ فليترك تحقيق مثل هذه الرسائل والكتب إلى غير طلاب الدراسات العليا ، وليكن مثلاً للتدريب على التحقيق في سنة من سنوات (الدبلوم) التي تسبق التسجيل لدرجة الماجستير .

لقد رأيت الكثيرين والكثيرات من طلاب الدراسات العليا في المعاهد والكليات المختلفة يُعرضون عن الكتابة في موضوع ينشئونه أو يؤلِّفون فيه ، ويتهافتون على البحث عن مخطوط يحقّقونه ، فإذا عثروا على ضالّتهم ووافق الأستاذ المشرف على موضوعهم انصرفوا إلى « التحقيق ! » فنسخوا المخطوط بخطّهم ووفق قراءتهم . وعرّفوا بمن ذكر فيه من الأعلام ، وهو أمر ميسور ينقلونه من كتب التراجم ، وقد لا تكون كتباً متخصصة بأمثال من يترجمون له من العلماء ! ثم عزوا آيات القرآن إلى أماكنها من السور في كتاب الله ، ونسبوا الشواهد إلى أصحابها ، وترجموا لهم ، ودلّوا على مواطن ذكرها في كتب الأدب أو دواوين أصحابها ، وقد يعلّق أحدهم في حاشية أو هامش على أمر لا يغني القارئ شيئاً . . . وكفى الله المؤمنين القتال ، فقد انتهى التحقيق !! وأما الدراسة عند من يكون

منهم عنوان رسالته « دراسة وتحقيق » فهي عنده حديث عن عصر العالم وتعداد لشيوخه وتلامذته وآثاره ، وليست في الغالب دراسة لنحو العالم وآرائه ، ومعرفة ما سُبق إليه وما تفرّد به ، ولا لبيان أثره فيمن جاء بعده ، ولا لمناقشة مسائل الكتاب والحكم على مكانته بين أمثاله . . . ثم يتخرّج الطالب مجازاً بدرجة جامعية في (النحو) وقد يصبح أستاذاً في الجامعة ، وهو لم يدرس من النحو شيئاً !

لقد سألت بعض من تخرجوا من (المحقّقين والمحقّقات) ماذا أضافت رسائلهم إلى النحو أو تاريخه من جديد؟ فكان منهم من سكت ، وكان منهم من أجاب بأنه عرّف بعالمٍ من علماء القرن الفلاني وذكر شيوخه وعدّد تلامذته ووصف آثاره ، إن أمثال هؤلاء لم تهيِّئهم دراستهم لتدريس النحو ، ولا للكتابة فيه ، ولو كلف أحدهم كتابة موضوع نحويّ لبان نقصه وظهر ضعفه .

لقد كان الأصل في إشراك طلاب الدراسات العليا في التحقيق أن يكتب الطالب رسالة في موضوعٍ ما ، وأن يكون تحقيق رسالة أو جزء من كتاب نصاً ذا صلة بموضوع الرسالة ، فيكون الطالب بذلك قد درس النحو حين ألّف أو كتب موضوعه ، وبدأ في الوقت نفسه طريقه إلى التحقيق ، فجمع بين الأمرين جمعاً متوازناً يهيِّئه لما سيستقبل من عمل علمي في أيامه المقبلة تأليفاً وتحقيقاً ، والتأليف والبحث هما الأصل ، وأما التحقيق فرديف مساعد .

لقد رأيت أن من أفضل ما نقدّمه للقارئ اليوم الرسائل أو الكتب الصغيرة الحجم التي تغري القارئ بالقراءة ، وقارئ اليوم يؤثر

السرعة ، على أن يكون في الصفحات القليلة التي توضع بين يديه ما يلفت نظره إلى مشكلة تحتاج إلى دراسة ، أو قضية تحتاج إلى بحث ، أوتثير تساؤله أو تفتح له أبواباً إلى موضوعات جديدة . وليس صحيحاً أن نقدّم له في كل مرّة كتاباً ضخماً لا يترك في موضوعه صغيرة ولا كبيرة إلا يتناولها ويفصّل فيها ، إن أمثال هذه المؤلّفات الضخمة حسبها أن تكون أنموذجاً يحتذيه الطالب حين يؤلف أو ينشئ رسالته ، وأما تلك الرسائل أو الكتب الصغيرة فلتكن حوافز تحثّه على التساؤل والمتابعة والاستقصاء ، وتفتّق عنده مجموعة من الاحتمالات ، وتفتح له أبواب القول ، وتوحي إليه بموضوعات تستحق البحث والمعالجة . ولست أكتم أنني وجدت أثر ذلك فيما سمعته من زملائي ، وفيما رأيته من آثار طلابي ، حين وقفوا على بعض كتبي التي اتبعت فيها هذا المنهج (كالموجز في تاريخ البلاغة) و(كالنحو العربي ـ بحث في العلة النحوية ، نشأتها وتطوّرها) وفي بعض ما كتبته في (مقالات في العربية) وفي (نظرات وآراء في العربية وعلومها) .

ولكم تمنّيت أن يقوم طالب ممن يدرسون العربية بدراسة كتاب النحو الذي درسه أو كتب النحو التي درس النحو فيها في المدارس الإعدادية والثانوية والجامعة ، وأن يوازن بينها وبين الكتب التي كانت تدرَّس منذ خمسين سنة أو أكثر في تلك المراحل الدراسية ليرى الفرق الكبير بين ما كان عليه كتاب النحو وما آل إليه اليوم بعد محاولات التطوير والتجديد ! وليرى الفرق في نصوص الكتاب

وشواهده ، وفي عرض القواعد وصياغتها ، وفي اللغة التي صاغ المؤلف بها عبارات كتابه . وكتاب النحو ركن من أهم أركان تعليمه ، وعنصر من عناصر تحبيب قراءته إلى الطالب .

* * *

نحويّون قُدَماء

١ ـ أبو عمرو بن العلاء[١]

أستاذ العلماء وشيخ الرواة وأحد القرّاء السبعة

كثر اختلاف العلماء حول اسمه ، وكثرت أسماؤه عندهم ، لأن أحداً من الناس لم يجرؤ على أن يسأله عن اسمه ! إجلالاً له وإكباراً فاشتهر بكنيته حتى قالوا إنها اسمه ، ذلك هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار المازني التميمي أستاذ العلماء وشيخ الرواة .

ولد أبو عمرو بمكة ومات بالكوفة سنة ١٥٤هـ عن ست وثمانين سنة . قضىٰ عمره في طلب العلم وتعليمه ونشره ، وبلغ فيه ما لم يبلغه إلا القلة النادرة من العلماء .

أقام في مكة ، وقرأ فيها على سعيد بن جبير أعلم التابعين ، الذي أخذ عن ابن عباس وابن عمر . وأقام في المدينة وسمع أنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ . وأقام في البصرة ، وروىٰ عن الحسن البصري ، وأخذ عن نصر بن عاصم تلميذ أبي الأسود الدؤلي ، وروىٰ عن ابن أبي إسحاق .

كانت له رحلة إلى البادية ، جاور البدو فيها أربعين سنة يسمع ويحفظ ويسجل ، فإذا حضر موسم الحج أسرع إلى مكة ليحج

---

(١) نشرت في صحيفة « الاتحاد » في ٢٤/ ١٢/ ١٩٩١ ـ أبو ظبي .

وليسمع من الوافدين إلى مكة لغاتهم ولهجاتهم حتى أصبح علماً تجاوزت شهرته العصور بما جمع من لغات العرب ولهجاتهم وأشعارهم وأخبار أيامهم .

دخل الشام وحضر بعض مجالس هشام بن عبد الملك ، وعرف جريراً والفرزدق والأخطل وذا الرمة وغيرهم من شعراء عصره .

وأبو عمرو بن العلاء إذا ذكر القرآن الكريم كان واحداً من قرائه السبعة ، وبقراءته يقرأ أهل الحجاز واليمن والشام ومصر ، وإذا ذكرت اللغة العربية كان واحداً من مصادرها الموثوقة . وإذا ذكر الخليل شيخ النحاة ذكر شيخه أبو عمرو . وإذا ذكر الأصمعي الراوية ذكر أستاذه أبو عمرو . بل إذا ذكر العلماء والرواة ذكرت قولة ابن جني : « أبو عمرو بن العلاء أبو العلماء وكهفهم وبدر الرواة وسيفهم » .

وإذا ذكرت أشعار امرئ القيس والحطيئة وابن مقبل وغيرهم ذكر أبو عمرو الذي قرئت عليه ، وإذا ذكر النقد اللغوي للشعر ذكر أبو عمرو ناقداً لغوياً له آراؤه الكثيرة في شعر النابغة وابن أبي خازم والفرزدق وجرير وذي الرمة والراعي والأخطل وغيرهم . وإذا ذكرت حلقات العلم ذكرت حلقة أبي عمرو في مسجد البصرة ، وإذا ذكر العلماء الزهاد ذكر أبو عمرو واحداً منهم ، فلم تكن الدنيا من همه . وقد نقش على خاتمه : إن امرأً دنياه أكبر همّه لمستمسك منها بحبل غرور .

وكان إذا حضر شهر رمضان يهجر كل شيء وينصرف إلى كتاب

الله قارئاً ودارساً .

ولم تكن مجالس السلطان تغريه ولا تناسب طبيعته ، وكان ينشد :

أنفت من الذلّ عند الملو ك وإن أكرموني وإن قرَّبوا
إذا ما صدقتهمُ ضفتهم ويرضون مني بأن يُكذبوا

وإن المرء ليشتد أسفه حين يعلم أن أكثر آثار الرجل لم تصل إلينا ، ولو وصلت لكان فيها علم كثير ، ويقال إنه أحرقها قبل موته ، وإن أكثر ما وصل إلينا إنما عرفناه عن طريق الرواة الذين أخذوا عنه ونقلوا عنه في القراءات واللغة والأمثال والأدب حتى لا يكاد يخلو كتاب من كتبها من آراء أبي عمرو وأقواله .

وقد عرف الناس له مكانته بين العلماء حتى قالوا إنه لم يكن في عصره أعلم منه بالقراءات ولغات العرب وأشعارهم وأيامهم .

وكان إلى علمه موصوفاً بالتواضع والتدين والظرف ، مشهوراً بالأمانة في النقل ، والصدق في الحديث ، والتثبت في الرواية حتى قال يونس بن حبيب : « لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء ، كان ينبغي لقول أبي عمرو في العربية أن يؤخذ كله » .

وقد سخّر أبو عمرو كل معارفه اللغوية والنحوية لخدمة القرآن الكريم والاحتجاج لألفاظه وقراءاته ، كما سخر حياته كلها للعلم يجمعه ويرويه وينشره ، فتخرج به عدد كبير من جلّة العلماء ، وحسبه أنه علّم الخليل الفراهيدي والكسائي والأصمعي وطبقتهم ، وانتشرت آراؤه في كتب التفسير والقراءات واللغة والنحو وأخبار

الشعراء وطبقاتهم .

روىٰ القفطي في « إنباه الرواة » أن ابن مناذر سأل أبا عمرو إلى متى يحسن بالمرء أن يتعلّم ؟ فقال : ما دامت الحياة تحسن به .

وكان أبو عمرو يقول : لا تزر إلا لفائدة أو عائدة أو مائدة . يعني بالعائدة زيارة المريض . وهو قول فيه من الحكمة ما فيه .

وقد أثروا عنه أنه كان يدعو فيقول :

اللهم إن أنزلت بلاء فأنزل صبراً ، وإن وهبت عافية فهب شكراً.

* * *

٢ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي[١]

شيخ اللغويين وأستاذ النحويين ورائد المعجمية العربية

قال سفيان الثوري : « من أراد أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد » .

والخليل هو أبو عبد الرحمن الفراهيدي نسبة إلى الفراهيد ، وهم بطن من الأزد كما في كتب الأنساب ، ولد سنة مئة للهجرة ، وامتدت حياته قرابة خمس وسبعين سنة .

عاش في البصرة ولازم حلقة شيخه أيوب السختياني فقيه البصرة ومحدِّثها وسيد شبابها ، وانتفع به . وجالس عيسىٰ بن عمر ، وأخذ النحو عنه ، كما أخذ القراءة واللغة والأدب عن أبي عمرو بن العلاء ، ورحل إلى البادية يتتبع الأعراب ويسمع منهم . وكان مولعاً بالعلم يتتبع مواطنه ويلازم أهله ولا يقف في طلبه عند حدّ ، لأنه كان يعتقد أن « من استغنىٰ بما عنده جهل » . كما كان يقول ، وكان لا يخجل ولا يترفع في طلب العلم ، ويقول في ذلك : إن الجهل ليتربع بين الحياء والكِبر في العلم .

وإذا كان العلماء ينتسبون بعلومهم إلى شيوخهم ، كما نسب نحو سيبويه إلى الخليل ، وعلم ابن جني إلى الفارسي ، وعلم الزجاجي

---

(١) نشرت في صحيفة « الاتحاد » في ١٧/ ٣/ ١٩٩٢ ـ أبو ظبي .

إلى الزجاج ، وعلم بديع الزمان الهمذاني إلى ابن فارس ، فإن علم الخليل لا ينتسب إلى شيخ واحد بعينه ، لأن الخليل لم يكن صنعة شيخ أو أستاذ واحد بل كان رجلاً استوعب ما في بيئة البصرة في عصره من ثقافات ، وما في البوادي التي أكثر من الرحلة إليها من لغات ، وما عند الأئمة والشيوخ من العلوم ، وتمثل ذلك كله وصقله بعقل واسع درّاك ، وذهن رياضي منظّم ، وفكر نافذ وذكاء حادّ ، ونظر إلى العلم نظرة شمولية كلية ترقىٰ بمنهجية علمية من الجزئيات إلى الكليات ، ومن الظواهر إلى القوانين والأحكام ، فإذا هو رائدٌ سبَّاق ، وإذا (هو أكثر من أخرجته دولة الإسلام إبداعاً في العلوم التي لم يكن لها عند العرب أصول) على حدّ قول حمزة الأصبهاني فيه .

لقد كان الخليل هو السباق إلى فكرة ضبط اللغة وجمعها في معجم مبوَّب . وكان هو السباق إلى استنباط أصول موسيقا الشعر وضبط الأوزان ووضع العروض وتسمية بحوره ، كما هداه حسّه الموسيقي إلى معرفة صفات الحروف ومخارجها وتمييز ما يأتلف منها وما يتنافر . وأما النحو فقد كان الخليل شيخ الصدر الأول من رجاله وعلى رأسهم سيبويه ، وما تكرر ذكر أحد في « الكتاب » كما تكرر ذكر الخليل حتى قيل إن علم النحو الذي ضمه الكتاب هو علم الخليل معقود بلفظ سيبويه .

إن من حق الخليل على العرب أن يضعوه في منزلة لا يرقىٰ إليها إلا النوادر من الرجال ؛ لأن العلماء كثيرون في كل علم وفن ، وعند

معظم الأمم ، ولكنهم قلة نادرة أولئك العلماء الذين ترىٰ آثار بصماتهم واضحة جلية في الحياة العقلية والعلمية للأمة ، كما نرىٰ آثار بصمات الخليل في الحياة العقلية والعلمية للأمة العربية .

وأما شهادة سفيان الثوري في الخليل ، وهو أمير المؤمنين في الحديث النبوي ، ومن أعلم الناس وأورعهم ، فهي شهادة للخليل تؤكد ما عرف عنه من أصالة معدنه ونفاسته ، وتؤكد ما اتصف به من أدب جمّ وخلق رفيع وتواضع عجيب ، إلى دين وعفة وورع وزهد وبعد عن مظاهر الحياة حتى وصف بالناسك .

لقد كان الخليل يعيش في خصٍّ له بالبصرة ـ وهو بيت من القصب والخشب ـ عاكفاً على العلم والعبادة ، لا يجاوز همه بابه ـ كما قال ـ لا يغادره إلاَّ للحج أو الغزو ، وكان بعض تلاميذه يأكلون الدنيا بعلمه ـ كما قال تلميذه النضر بن شميل ـ وهو في خصه لا يشعر به ! وكان غنياً في نفسه ، قانعاً من دنياه بقوته بل بخبز يومه ، أرسل إليه والي الأهواز يوماً رسولاً يستدعيه لتأديب ولده فأخرج للرسول كسرة خبز يابسة وقال له : قل لمرسلك ما دام الخليل يجد مثل هذه فلا حاجة به إليك .

ومن أخباره أن الأصمعي كان يتردد عليه لسنتين يريد أن يتعلم العروض ، ولم يكن أهلاً لذاك فأراد أن يصرفه بأدب ، فقال له : قطِّع قول الشاعر :

إذا لـم تستطـع شيئـاً فـدعـه وجـاوزه إلـى مـا تستطيـع

فشرع الأصمعي يقطّع البيت على مبلغ علمه ، ثم قام وانصرف

ولم يعد ، فقال الخليل : عجبت من فطنته لما قصدته من البيت مع بعد فهمه !

وأما موته فيقال إنه كان على أثر صدمة بسارية في المسجد اصطدم بها وهو سائر يفكر في ابتكار قاعدة حسابية تمكّن الجارية الجاهلة بالحساب من أن تبيع وتشتري دون أن تنخدع .

* * *

٣ ـ أبو القاسم الزجَّاجي

التلميذ الوفي والعالم المعلم

أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ، نحوي نسبه بعض أصحاب التراجم إلى نهاوند ، ونسبه بعضهم إلى بغداد نشأة وإلى نهاود أصلاً كما ذكر ابن خلكان ، والزجاجي من أهل الصيمرة ، كما ذكر السيوطي والقفطي . ولكن الرجل اشتهر بالزجاجي شهرة غلبت على اسمه وألقابه وانتماءاته ، ولم تكن هذه النسبة إلى أسرة ولد منها ، ولا إلى مدينة نشأ فيها ، ولا إلى صنعة اتخذها ، ولكنها نسبة التلميذ إلى شيخه وأستاذه الذي لازمه وأخذ عنه وتخرج به ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج ، وهي نسبة تحمل من الوفاء ما تحمل ، وتدل على تلك الصلة الروحية والعلمية بين التلميذ وأستاذه ، وهي صلة افتقدها معظم أهل العصر من معلمين ومتعلمين .

لقد كان الطلاب طلاب علم ينظرون إلى شيوخهم على أنهم معلمون وهداة وأصحاب رسالة ، أخذ الله منهم العهد على أن يرعوها حق رعايتها وأن يؤدوها بأمانة وإخلاص ، وأما الناس في هذا العصر فأكثرهم على أن التعليم حرفة كسب وارتزاق ، تتكفل للمعلم بالرزق ، وتهيئ للمتعلم درجة علمية أو شهادة هي الغاية من تعلمه

لأنها تفتح له باب العمل والكسب ! ولا شك أن المساجد التي كانت حلقات العلم والتعليم تعقد في رحابها وتستلهم جوها ، كانت ذات أثر بعيد في جعل تلك الصلة بين المعلم والمتعلم صلة حب وإخلاص ووفاء ، وجعل العملية التعليمية عملية تربوية تثقيفية تتجاوز حدود الكسب والارتزاق بل تتجاوز الدنيا وتقصد وجه الله .

ونعود إلى الزجاجي لنقول : إنه ولد في جنوب همدان ، ونشأ في بغداد ، وأخذ عن عدد كبير من علماء اللغة والنحو ، وأحب العلم وسعىٰ وراء رجاله ، فكانت له زيارات ورحلات عرف فيها دمشق وحلب وغيرهما . وكان في جميع البلاد التي زارها أو رحل إليها بين متعلم مستفيد أو عالم مفيد .

ولقد أقام مدة في كل من دمشق وحلب ، فدرس وعلّم وألّف ، ثم رحل إلى طبرية من أرض فلسطين ، وبقي فيها إلى أن مات سنة ٣٣٧هـ ، وخلّف ذكراً طيباً يقوم على شهرة تعلن الوفاء لشيخه وتنضوي على أدب جم وتدين وورع ، كما خلّف للدارسين والمتعلمين مكتبة من مؤلفاته في النحو واللغة . ولعل أبرز ما يميز الزجاجي حبه للتعليم ونشر العلم ، وآية ذلك عندنا أمران :

أما الأول فما ذكر عنه من أنه ألّف كتابه « الجمل » في مكة ، وكان كلما فرغ من باب منه طاف حول الكعبة سبع مرات داعياً لنفسه بالمغفرة ولقارئ كتابه أن ينتفع به .

وأما الأمر الثاني فهو حرصه الواضح على تعليم المبتدئين ، يظهر ذلك في اختياره الأسلوب السهل الواضح والإكثار من الأمثلة في

كتبه ، كما يظهر ذلك في تأليفه بعض الكتب المبسطة مما جعل بعض مترجميه يصفونه بأنه كانت طريقته في النحو متوسطة ، وأن تصانيفه يقصد بها الإفادة . بل إن رغبته في التعليم لا في التعالم لتظهر فيما صرح به في غير موضع من كتبه من مثل قوله : « وهذا تقريب للمبتدئ » وقوله : « هذا كتاب نقصد به المبتدئين للنظر في هذا العلم » . . . كما تظهر في تجنبه لكثير من المصطلحات النحوية غير الشائعة واعتذاره عن ذلك بأنه يعبر عما يريده النحاة الكوفيون بغير ألفاظهم ، لأن ذلك لا يفهمه إلا من أطال النظر في كتبهم .

لقد كان الزجاجي صاحب أسلوب تعليمي يميل إلى السهولة والوضوح وضرب المثل ، مما جعله من أشهر المعلمين في عصره ، وجعل العلماء يهتمون بكتابه « الجمل » ، فوضعوا حوله ـ على سهولته ووضوحه ـ مئة وعشرين كتاباً تتناول موضوعاته وآراء صاحبه وأبيات شواهده .

وكان ممن اهتم به علماء أعلام ، كالمعري وابن سيده والبطليوسي والأعلم وابن خروف وابن عصفور وابن هشام ، وهم من هم في علوم اللغة والنحو والأدب .

فظلّ كتاب « الجمل » منتشراً ذائع الصيت حتى ظهرت كتب الفارسي وابن جني فشدت الناس إليها وشغلتهم بعمقها عن الزجاجي وكتبه ، بعد أن انتفع الناس بكتبه زمناً طويلاً وكثر طلابه .

وللزجاجي مجموعة مؤلفات في النحو واللغة والأخبار منها :

كتاب « الجمل » ، وكتاب « اللامات » ، و« الإيضاح في علل النحو » ، و« الأمالي » .

و« مختصر الزاهر » ـ وهو من المختصرات التي وصفت بأنها فاقت أصولها ـ ، و« مجالس العلماء » و« شرح مقدمة أدب الكاتب » ، وعني بأسماء الله تعالىٰ ووضع كتاباً فيها سماه « اشتقاق أسماء الله تعالىٰ المستنبطة من التنزيل وما فيها من اللغات والمصادر والتأويل » .

وتمتاز مؤلفات الزجاجي بسهولة لغتها ، ووضوح فكرتها ، وبعدها عن التعقيد حتى إن الكاتب يفهمها دون الحاجة إلى معلم .

والنحو عند الزجاجي على ثلاث طبقات أو مستويات ، فالمستوىٰ الأول للمبتدئين الذين يريدون من القواعد ظاهرها الذي يكتفى به لحفظ اللسان من اللحن والقلم من الزلل ، وهو نحو يقوم على ذكر القاعدة وبسطها والتمثيل لها ، والمستوىٰ الثاني للذين يطلبون معرفة بعض العلل التي تختفي وراء الأحكام ، وأما المستوىٰ الثالث فللمتخصصين الذين يتعقبون العلل ويغوصون في فلسفة النحو وآراء مدارسه المختلفة .

ويمتاز الزجاجي برغبته في تحرير النحو من كثير مما شابه من أساليب العلوم الأخرىٰ التي طغت في كتب النحو وسيطرت على النحاة وبدت آثارها في الحدود النحوية وأساليب معالجة موضوعاته ، كتلك النزعة المنطقية والفلسفة النظرية التي غلبت على ثقافة النحاة ، فتأثروا بها وطبعوا نحوهم بطابعها فوضعوا للنحو

حدوده ، وعرفوا مصطلحاته وفق شروطها ، وعالجوا موضوعاته في ضوئها ، لذلك رأينا الزجاجي يذكر حداً من الحدود النحوية مثلاً ثم يقول : « هذا الحد صحيح على أوضاع المنطقيين ، ولكنه غير صحيح على أوضاعنا لأن غرضهم غير غرضنا » ، وتلك عندي نظرة سديدة في التفريق بين منطق العقل النظري ومنطق اللغة الواقعي .

* * *

٤ ـ علي بن عيسىٰ الرمّاني : النحوي الحكيم[١]

ورّاق وعالم ومتكلم اختار الورع والعفة

يعجب المرء حين يرىٰ من يفني عمره اليوم في تحصيل علم واحد ثم لا يبلغ فيه مرتبة من استقصىٰ واستوعب ، أو مرتبة تؤهله للإبداع والاجتهاد . ويزداد العجب حين يوازن علماء اليوم بعلماء الأمس فيرىٰ في سلف هذه الأمة من استقصىٰ واستوعب وأبدع واجتهد وبلغ مرتبة الإمامة في أكثر من علم واحد وأكثر من اختصاص واحد كما نقول اليوم .

وأبو الحسن ـ علي بن عيسى ـ الرماني واحد من أولئك الأعلام الذين كان كل منهم موسوعة علمية .

عاش الرماني بين عامي ٢٩٦ ـ ٣٨٤هـ ، وعرف بالإخشيدي وبالوراق وبالجامع وبالواسطي ، ولكنه كان بالرماني أشهر . وشاركه في اسمه وكنيته رجلان آخران مشهوران ، والطريف أنهما كانا معاصرين له أيضاً ، أحدهما هو أبو الحسن علي بن عيسىٰ الجراح (٢٤٥ ـ ٣٣٥هـ) الذي عرفته بغداد وزيراً ذا أثر بارز في الحياة العامة ، والثاني هو أبو الحسن علي بن عيسىٰ الربعي النحوي (٣٢٨ ـ ٤٢٠هـ) ، وكان لهذا التشابه في الاسم والكنية والمعاصرة

---

(١) نشرت في صحيفة « الاتحاد » في ١٠/ ١٢/ ١٩٩١ ـ أبو ظبي .

والمساكنة في بغداد أثر في تداخل الحديث عنهم في بعض الكتب .

اتصل الرماني بشيوخ عصره ـ القرن الرابع الهجري ـ وهو عصر ازدهار فكري ونضج ثقافي ، وأخذ عن ابن دريد العالم اللغوي ، وعن ابن السراج والزجَّاج النحويين ، وقيل إنه أخذ عن الإمام الفارسي أيضاً ، كما أخذ عن شيخه المعتزلي ابن الإخشيد وتأثر به حتى نسب إليه .

وأتقن الرماني عدداً من العلوم ، فكان في العربية وعلومها واحداً من علمائها وأصحاب الرأي فيها ، وكان في التفسير وعلوم القرآن عالماً ذائع الشهرة . وأما المنطق وعلم الكلام فكان فيهما من العلماء المبرّزين ، وكانت ثقافته واضحة الأثر في كل ما ألّف وكتب .

ووضع الرماني في كل من العلوم التي مهر فيها عدداً كبيراً من الكتب ، ما زال بعضها مخطوطاً ، والكثير منها مفقوداً .

ومن آثاره التي عرفناها في اللغة العربية وعلومها كتاب « الألفاظ المتقاربة أو المترادفة المعنىٰ » ، وكتاب « معاني الحروف » . وقد طبع له غير مرة « منازل الحروف » ، وكتاب « الحدود » ، و« شرح كتاب سيبويه » .

وكانت للرماني عناية خاصة بهذا الكتاب جعلته يفرده بعدد من مؤلفاته إذ ألّف أغراض كتاب سيبويه ، ونكته ، وتهذيبه ، والمسائل المفردة منه . وأما شرحه للكتاب فشرح كبير وضعه بأسلوب فريد يقوم على وضع عدد كبير من الأسئلة المتسلسلة المبنية على كلام سيبويه ، ثم إيراد الإجابة عنها في تسلسل مشابه .

وتتبّع الرماني كتب شيوخه وشيوخهم فوضع لكل منها ما يناسبه من شرح أو تعليق، فشرح « الألف واللام » للمازني ، و« المقتضب » للمبرد ، و« الجمل » و« الشكل » و« النقط » و« الأصول » لابن السراج كما وضع كتباً مستقلة في النحو والاشتقاق .

وألف في إيجاز القرآن وعلومه ، ووضع تفسيراً كبيراً للقرآن الكريم قيل إن الزمخشري أفاد منه كثيراً في تفسيره « الكشاف »، وإذا أضفنا إلى ذلك ما ألفه في المنطق وعلم الكلام وجدنا أن عدد كتبه يبلغ مئةً وكتابين . ولعل هذا العدد الضخم من المؤلفات يلفت نظرنا إلى أن معظم العلماء كالرماني وأمثاله لم تكن الحياة من همهم ، وأن الإخلاص للعلم جعلهم ينصرفون إليه انصرافاً لم يدع لهم وقتاً للمشاركة في الحياة العامة .

لقد انصرف الرماني إلى العلم متعلماً ومعلماً ومؤلفاً ، والجدير بالذكر أن وقت التعليم عنده لم يكن غير وقت التأليف ، لأنه كان يملي دروسه إملاء على طلابه ، وبذلك ينتهي تأليف الكتاب بانتهاء الدروس . ولم يكن العالم يسعىٰ وراء الدنيا أو يلهث في طلب المال أو رضا السلطان ، وكثيراً ما آثر العلماء الفقر وعاشوا من عمل أيديهم ، وقد ذكروا ذلك عن الرماني فقالوا إنه عمل ورّاقاً ، وإنه كان فقيراً موصوفاً بالورع والعفة والصلاح . على أن العالم لا يخلو من صديق يحبه ويثني عليه ، أو تلميذ وفي ينتفع به ويذكره بالخير ، كما لا يخلو من كاره أو حاسد أو حاقد يطعن فيه . وكان أبو حيان التوحيدي من المعجبين بالرماني ، وكثيراً ما مدحه وأثنىٰ عليه ،

وكان الفارسي ممن لا يعجبهم علم الرماني في النحو أو منهجه فيه ، فكان يقول : « إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء . وإن كان النحو ما نقوله فليس معه منه شيء ! » .

ومن أطرف ما ذكره التوحيدي وصفٌ لأحد مجالس الرماني المعلِّم لا يقدّره حق قدره إلاّ معلم ابتلي بما ابتلي به الرماني . . قال أبو حيان : « رأيت في مجلس علي بن عيسىٰ النحوي رجلاً يسأله عن الفرق بين (مَن) و(ما) و(ممَّن) و(ممَّ) ، فأوسع له الكلام ، وبيّن وقسّم وفرّق وحَدَّ ومثّل من غير فهمٍ للسائل أو تصوّر ، وسأل إعادته عليه وإبانته له ، ففعل ذلك مراراً من غير تصور حتى أضجره ومن حدِّ الحلم أخرجه ، فقال له : أيها الرجل ، يلزمني أن أبين للناس وأصوِّر لمن ليس بناعس ، وما علي أن أفهم البهم والدهم ، مثلك لا يتصور هذه المسألة بهذه العبارة وهذه الأمثلة ، فإن أرحتنا ونفسك فذاك ، وإلا فقد حصلنا معك على الهلاك ، قم إلى مجلس آخر ووقت غير هذا . . . ولما أساء الرجل الأدب قام الطلاب ليضربوه فمنعهم الرماني وأوصاهم بالتؤدة والاحتمال لئلا يكون أحدهم نظيراً لخصمه في خلقه . . » . ومن حكم الرماني قوله : « لا تعادين أحداً وإن ظننت أنه لن ينفعك ، فإنك لا تدري متى تخاف عدوك أو تحتاج إليه ، ومتى ترجو صديقك أو تستغني عنه ، وإذا اعتذر إليك عدوك فاقبل عذره ، وليقلّ عيبه على لسانك » .

ولعلّ خير ما نختم به الحديث عن الرمّاني شهادة التوحيدي الذي قال عنه « إنه لم يُر مثلُه قطُّ بلا تقيّةٍ ولا تحاشٍ ، ولا اشمئزاز

ولا استيحاش ، علماً بالنحو ، وغزارةً في الكلام ، وبصراً بالمقالات ، واستخراجاً للعويص ، وإيضاحاً للمُشْكِلِ مع تألّه وتنزّه ، ودين ويقين ، وفصاحة وفقاهة ، وعفافة ونظافة » .

* * *

٥ ـ عثمان بن جني : القطب في لسان العرب[١]

رومي يوناني عرّبه الإسلام فأصبح عالماً في القراءات وحجة في العربية

كان الشاعر أبو الطيب المتنبي صديقاً للعلامة اللغوي أبي الفتح عثمان بن جني ، وكان يقول عنه : « هذا رجل لايعرف قدره كثير من الناس » ، ولعل هذا القول لا يصدق على أحد صدقه على طلاب العربية في هذه الأيام ، فقد شغلهم عن ابن جني وأمثاله ما زحم المناهج التدريسية من لسانيات وصوتيات حتى أصبح الكثيرون منهم عاجزين عن النطق أو الكتابة بعربية سليمة . . . جاهلين أكثر كتب التراث اللغوي . . ومنها كتب ابن جني . . . وهي كتب عاشت على علمها أجيال من المعلمين والمتعلمين . . وأصبحوا يشكون من صعوبة العربية وهم العرب ، على حين أن ابن جني الرومي الأب أصبح في لغة العرب إماماً يقول عنه الثعالبي : « هو القطب في لسان العرب » .

ولد ابن جني في الموصل لأب رومي يوناني كان مولىً في بني أزد . فقيل له : الأزدي ، ولكنه بلغ بعلمه ما لم يبلغه الكثيرون بأنسابهم ، وتعلم في الموصل ثم غادرها إلى بغداد ، وظلّ يتنقّل بين بلاد فارس والعراق والشام إلى أن مات في بغداد سنة ٣٩٢هـ عن

---

(١) نشرت في « الاتحاد » في ١/ ١/ ١٩٩٢ ـ أبو ظبي .

سبعين سنة .

اتصل ابن جني بشيوخ عصره في تلك البلاد التي زارها وأخذ عنهم ، ولكنه لم يكن لأحد منهم فضل عليه ، كما كان لأبي علي الفارسي إمام عصره في العربية وعلومها ، فقد لازمه ابن جني أربعين سنة ، وتخرج به وأصبح في طبقته . وكان ابن جني ـ على كثرة آثار الفارسي ـ من أنضج ثمراته وأكثرها نفعاً وبركة .

وعرف ابن جني لشيخه فضله فكان كثير الإعظام له ، دائم الثناء عليه ، يورد آراءه في كتبه ، وينقل أقواله ويصف قوة قياسه اللغوي ونفاذ بصره ، ويقول : « إنه لقوي القياس في العربية ، كثير الشغف بها ، حتى كأنه مخلوق لها » .

وروىٰ ابن جني كذلك عن محمد بن الحسن المشهور بابن مقسم العطار عالمِ القراءات والعربية ، وعن أبي الفرج الأصفهاني صاحب كتاب « الأغاني » ، وروىٰ عمن لقيهم من الأعراب ، ولكنه كان لا يروي عنهم إلا بعد اختبار فصاحتهم مخافة أن يكون الاختلاط قد أثر في لغتهم أو أفسد فصاحة ألسنتهم .

وكانت لابن جني شخصيته القوية المستقلة وأسلوبه المتميز ، ولم يكن مجرد ناقل للغة أو للآراء التي يوردها ، بل كان يحلل بعمق ويفسر بذكاء ويستنبط الأصول ويطلق الأحكام مشفوعة بالأدلة والبراهين ، ولم يكن ليقبل الآراء لمكانة أصحابها كما لم تضعف شخصيته أمام شيخه الفارسي ، بل كان إذا قبل الرأي دلل عليه ، وإذا خالفه أتىٰ بدليل مخالفته . وهو في أسلوبه فصيح العبارة ميال إلى

الإطناب يكثر من ضرب الأمثلة وإيراد الشواهد والحجج حرصاً على الإقناع . وإننا لنقرأ ما كتبه في الموضوعات اللغوية الجافة والمعقدة فإذا نحن أمام لغة أدبية بأسلوبها فلسفية بنظراتها وعللها ، حتى كان بحق أديب اللغويين وفيلسوفهم ، وتطلّ في كتبه نزعة اعتزالية ظاهرة في فكره حيناً وفي مصطلحاته حيناً آخر .

وكان ابن جني ذا خلق فاضل ولسان صادق ، فكان على بصريّته في النحو لا يحجم عن ذكر ثعلب والكسائي شيخي الكوفة بخير ، ولا يتردد في الرواية عنهما . وهو عند العلماء من الثقات الأثبات ، لذلك روىٰ له أصحاب المعجمات ونقلوا عنه اللغة وعزوها إليه كما في « لسان العرب » لابن منظور و« المخصص » لابن سيده .

ولعل من مميزاته في هذا الباب أنه كان يرىٰ في العربية وخصائصها مرآة للعرب الناطقين بها في الدقة والإحكام وحسن الأحوال وبعد الأغراض ولطف السرائر ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن جني بلغ في العربية وعلومها قمة لم تبلغها إلا القلة النادرة من العلماء .

ولابن جني بعد ذلك شعر عدّه بعضهم بارداً ورآه آخرون نظماً جيداً ، ومنه قصيدته التي رثىٰ بها صديقه المتنبي ومطلعها :

غاض القريض وأودت نضرة الأدب وصوَّحت بعد ريٍّ دوحة الكتب

ومن شعره في الغزل قوله :

أخذت ببعض حبِّك كلَّ قلبي فإن رمت المزيدَ فهاتِ قلبا

وتحتل آثار ابن جني في المكتبة العربية حيزاً بارزاً، فقد خلّف

ثـروة علميـة انتفعـت بهـا الأجيـال عبـر القـرون ، ومنهـا كتـاب « الخصائص » وهو أجدر كتب القدماء باسم كتاب فقه اللغة العربية ، وفيه أول حديث مفصل عما سماه ابن جني بالاشتقاق الأكبر ، ومنها كتـاب « سـر الصنـاعـة » و« المحتسـب فـي شـواذ القـراءات » و« المنصـف » و« تفسير ديـوان المتنبـي » و« المقتضـب فـي اسـم المفعول من الثلاثي المعتلّ العين » و« الألفاظ المهموزة » وغيرها .

ولعل خير ما نختم به الحديث عن ابن جني قصته في إصلاح ما بين شيخه الفارسي وصديقه المتنبي ، فقد كان الفارسي يذم المتنبي ويستثقل ظلّه ويستقبح زيه ويكره كبرياءه ، وكان تلميذه ابن جني على عكسه ، كثير الإعجاب بأبي الطيب ، قال صاحب « الصبح المنبي عن حيثية المتنبي » : « واتفق أن قال أبو علي يوماً : اذكروا لنا بيتاً من الشعر نبحث فيه فأنشد ابن جني :

حُلْتِ دونَ المزارِ فاليوم لو زُرْ تِ لحـالَ النُّحـولُ دونَ العِنـاق

فاستحسنه أبو علي وقال : لمن هذا البيت ؟ فقال ابن جني : هو للَّذي يقول :

أَزورُهم وسوادُ اللَّيلِ يشفعُ لي وأَنثني وبياضُ الصُّبْحِ يُغْري بي

فقال : والله هذا حسن بديع جداً ، فلمن هما ؟ قال : للذي يقول :

أَمْضَـىٰ إرادتَـه فسـوف لـه قـدٌ واستقربَ الأَقْصَىٰ فثَمّ له هُنا

فكثر إعجاب أبي عليّ واستغرب معناه ، وقال : لمن هذا ؟ فقال

ابن جني : للذي يقول :

ووضعُ الندىٰ في موضع السيف بالعلا

مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندىٰ

فقال : هذا حسن والله ، وقد أطلت يا أبا الفتح ، فأخبرنا من القائل ؟ قال : هو للذي لا يزال الشيخ يستثقله ويستقبح زيه وفعله ! وما علينا من القشور إذا استقام اللب ؟ قال أبو علي : أظنك تعني المتنبي . قال : نعم . قال : والله لقد حببته إليّ .

* * *

٦ ـ أحمد بن فارس[١]

لغوي جمع إتقان العلماء وظرف الكتاب والشعراء

يمثل ابن فارس ثقافة المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري بما اتصف به من تنوع في العلم ، وانفتاح على الثقافات المختلفة من عربية وهندية وفارسية ويونانية ، صهرتها بوتقة المجتمع الإسلامي وعرّبها الإسلام .

وكان للناس في ذلك المجتمع المزدهر من عقيدتهم ما حال دون ذوبانهم في الثقافات الواردة ، كما كان لهم من لسانهم ما عبروا به عن تلك الثقافات بلسان عربي مبين ، ومن فكرهم ما غاصوا به واستوعبوا ثم اجتهدوا وأبدعوا .

وابن فارس هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، عاش معظم القرن الرابع ومات سنة ٣٩٥هـ . لازم أباه وكان عالماً في اللغة والفقه ، وقرأ عليه وأخذ عنه وعن شيوخ عصره الذين رحل في طلبهم متنقلاً ما بين بغداد وشيراز وقزوين والريّ وهمدان وغيرها ، وقضىٰ في كل منها ما شاء الله أن يقضي ، أخذ عن علمائها ، جامعاً علومهم ، ولعل طول إقامته في تلك البلاد كان سبباً من أسباب تعدد نسبته ، فقد نسب إلى غير بلدٍ منها ، فقيل إنه القزويني ، وقيل إنه

---

(١) نشرت في صحيفة « الاتحاد » في ٣١/ ١٢/ ١٩٩١ ـ أبو ظبي .

الرازي ، وقيل الهمداني .

ومن أشهر من أخذ عنهم أيضاً أبو الحسن علي بن إبراهيم القطان ، وهو فقيه لغوي نحوي ، قرأ عليه كتاب « العين » للخليل . ولازم ابن العميد وهو من أوسع الناس ثقافة في عصره وإلماماً بالعلوم ، واتصل بأبي حيان التوحيدي شاهد القرن الرابع وراوي أخباره وناقل مجالسه ، كما اتصل بالصاحب بن عباد الذي أعجب به وقال فيه قولته المشهورة : « شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف وأمن فيه من التصحيف » .

وأخذ عن ابن فارس عدد من التلاميذ ، بعضهم من آل بويه ، ومن أشهر من أخذ عنه تلميذه بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات الذي قيل إنه لازمه حتى استنفد ما عنده من علم .

وابن فارس مثال للرجل الفقير الذي لم يحل فقره دون وصوله إلى مرتبة الإمامة في العلم ، بل مرتبة الاجتهاد والإبداع ، فلقد تحدّث عنه معاصروه ووصفوه بقلّة ذات اليد ، ووصفوه على فقره بالكرم ، وقالوا إنه كثيراً ما كان يضطر إلى أن يهب بعض أثاث بيته لمن يطلب مساعدته لأنه لم يكن يملك غيره !

وإذا كان يسيراً على المرء أن يشتهر في بيئة مجدبة بالرجال ، فإن ابن فارس نبغ في البيئة التي طار فيها صيت عدد كبير من العلماء الأعلام مثل أبي علي الفارسي وأبي الفتح عثمان بن جني وغيرهما من أئمة اللغة . وكان في تلك البيئة علماً من أعلام اللغة والسابقين فيها ، فهو أول من أطلق اسم « فقه اللغة » على كتاب في تراثنا

اللغوي ، وذلك حين وضع للصاحب بن عباد كتابه « الصاحبي في فقه اللغة » ، وهو الذي أفرد معجماً مستوعباً أرجع فيه مفردات المادة اللغوية إلى الأصل أو الأصول المعنوية المشتركة فيما بينها وسمّاه « المقاييس » ، وهو الذي أدرك منزلة اللغة وخطر الضعف فيها إذ ينعكس ضعفاً على العلوم عامة ، وعلى علوم الشريعة والفقه خاصة ، فكان يدعو العلماء إلى إتقان اللغة ، ويناظر الفقهاء فيها ، وشعاره « من قصَّر علمه عن اللغة غولط فغلط » ، ووضع في ذلك رسالته « فتيا فقيه العرب » وهي مجموعة أسئلة فقهية وشرعية فيها ألفاظ غريبة تربك الفقيه الذي لا يعرف معناها .

ووضع معجم « المُجمل » وهو من أحسن كتب اللغة وضوحاً وضبطاً ، وعوّل فيه على خمسة كتب عدّها الأصول : « العين » للخليل و« غريب الحديث » و« مصنف الغريب » لابن سلام و« المنطق » لابن السكيت و« الجمهرة » لابن دريد ، وعدّ ما سواها محمولاً عليها وراجعاً إليها .

كما وضع « مُتخيَّر الألفاظ » و« الإتباع والمزاوجة » وغير ذلك من الآثار الكثيرة التي بلغت الستين مؤلفاً في اللغة والتفسير والفقه والنحو .

وجدير بالذكر أن ابن فارس كان منفتحاً على ثقافات عصره ملمّاً بأكثر من لغة ، مشاركاً في الحياة الأدبية والنقدية . ولابن فارس بعد ذلك شعر وصفوه بالظرف لأنه كان شعراً سهلاً واضحاً كثيراً ما نفّس فيه عن نفسه ووصف حياته الخاصة كقوله :

إذا ازدحمت هموم القلب قلنا عسىٰ يوماً يكون لها انفراج
نديمي هرتي ، وسرور قلبي دفاتر لي ومعشوقي السراج

وقد يسخّر شعره أحياناً للنقد الاجتماعي الهادف كما في قوله ينتقد الرشوة والراشين والمرتشين :

إذا كنت في حاجة مرسلاً وأنت بها دنِف مُغرَم
فأرسل حكيماً ولا توصه وذاك الحكيم هو الدرهم !

وكما في قوله يسخر ممن يتعلل لتقصيره في طلب العلم :

إذا كان يؤذيك حر المصيف ويبس الخريف وبرد الشتا
ويلهيك حسن زمان الربيع فأخذُك للعلم قلْ لي متىٰ ؟

وكان ابن فارس واحداً ممن تركوا أثراً واضحاً فيمن جاء بعده من العلماء ، وكانت آراؤه واضحة الأثر فيمن نقلوا أو رووا عنه ، وقد أثنىٰ عليه الثعالبي صاحب « يتيمة الدهر » ووصفه بأنه جمع إتقان العلماء وظرف الكتاب والشعراء .

* * *

٧ ـ العُكبَري

٥٣٨ ـ ٦١٦هـ = ١١٤٣ ـ ١٢١٩م

عالم بارك الله له في علمه فكان أشبه بموسوعة علمية
وبارك بشيوخه وتلاميذه فكثروا واشتهروا
وبارك بآثاره فكثرت كتبه وشاعت وانتفع بها خلق كثير

إنه محبّ الدين عبد الله بن الحسين ، أبو البقاء العُكْبَري (بضم العين وسكون الكاف وفتح الباء) البغدادي الحنبلي النحويّ . نسب إلى عكبرا ، موطن أسرته ، وهي بلدة صغيرة تقع على ضفة نهر دجلة على بعد عشرة فراسخ شرقاً من بغداد . وأما نسبته إلى بغداد فلأنه فيها نشأ وتعلّم وقضىٰ حياته .

أضرّ العكبري وهو صغير (أي أصبح كفيفاً) إذ أصابه مرض الجدري فذهب ببصره ، ولكنه عشق العلم ؛ فلم يُرَ في حياته إلاَّ مستمعاً أو مقرئاً أو مملياً ؛ يقرأ له طلابه في النهار ، وتقرأ له زوجته في الليل .

قرأ على عدد كبير من علماء عصره كابن دينار ، وأبي يَعلى الصغير ، محمد بن محمد ، شيخ الحنابلة في بغداد الذي قرأ عليه العكبري الفقه والأصول . وسمع الحديث من ابن البطي والبزاز وأبي زرعة ، وأخذ العربية عن ابن الخشّاب ، كما أخذ عن غيرهم حتى

أصبح من كبار العلماء في عصره في علوم الشريعة والعربيّة ، وعرف بالمقرئ والفقيه والمفسِّر والفرضيّ والنحويّ واللغوي والعروضي . قال ابن خلكان : « لم يكن في آخر عمره مثله في فنونه » . وقال صاحب « شذرات الذهب » إنه كان يفتي بتسعة علوم .

بلغ الغاية في الدين والخلق وسعة العلم ، وذاعت شهرته ، وأثنى عليه شيوخ عصره . فكثر طلابه وانتفع به خَلق كثير ، وتخّرج به أئمة نابهون في الفقه والحديث والعربيّة ، وقرأ عليه بعض طلابه الحساب والجبر والمقابلة . وذكر الذين ترجموا له عدداً كبيراً من الذين قرؤوا عليه وتخرّجوا به ، منهم : ابن الصيرفي والكمال البزاز البغدادي وياقوت الحموي ، وأبو الفرج ابن الجزري ، وابن القطيعي ، وأبو البركات عبد السلام الحرّاني جدّ الإمام ابن تيمية ، والمنذري ، وابن عدلان الموصلي ، وابن الساعي ، وابن أبي الجيش ، وغيرهم من المحدّثين والفقهاء وعلماء العربية . وقد فصّل الحديث عن أبي البقاء وشيوخه وتلامذته وآثاره الدكتور يحيى مير علم في كتابه « العكبري »[1] .

للعكبري كتب مشهورة منها « إعراب القرآن » أو « إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن » أو « التبيان في إعراب القرآن »[2] و« إعراب الحديث

---

(١) صدر عن دار العروبة بالكويت ، ودار ابن العماد ببيروت سنة ١٤١٤هـ و١٩٩٣م .

(٢) حملت طبعات الكتاب كل تلك الأسماء ، وكانت أقدمها طبعة « إعراب القرآن » ثم تتالت الطبعات بأسمائها المختلفة .

النبوي »[١] و« اللباب في علل البناء والإعراب »[٢] و« التبيين عن مذاهب النحويّين البصريّين والكوفيّين »[٣] و« شرح لاميّة العرب »[٤] و« المشوف المُعلَم في ترتيب الإصلاح على حروف المعجم »[٥] يعني « إصلاح المنطق » لابن السكّيت . و« شرح الإيضاح » للفارسي[٦] .

وللعكبري كتب أخرى كثيرة تجاوز عددها الثلاثين ، عدّدها الذين ترجموا له ، أو كتبوا عنه[٧] ، وما زال كثير مما نسب إليه من الآثار مفقوداً .

ولقد كانت آثاره التي ظهرت كافية لتعلن تأثر صاحبها بثقافة عصره فقهاً وفلسفة ومنطقاً وجدلاً واحتجاجاً ، وإن لم يكن لذلك أثر

---

(١) طبع غير مرة ، وأول طبعاته صدرت عن مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٧٧م بتحقيق د . عبد الإله نبهان .

(٢) صدر عن دار الفكر بدمشق ضمن مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي سنة ١٩٩٥م ، وهو في جزأين حقق أولهما د . غازي طليمات ، وحقق الثاني د . عبد الإله نبهان .

(٣) حققه ونشره في بيروت د . عبد الرحمن العثيمين . وكان د . محمد خير حلواني نشر كتاباً صغيراً لأبي البقاء سمّاه « مسائل خلافية في النحو » لعلّه جزء من كتاب التبيين كما يرى د . مير علم في كتابه « العكبري » ص٨٠ .

(٤) حقّقه غير واحد ونشر مرّات متعدّدة في بلدان مختلفة ، ومن محقّقيه د . محمد خير حلواني ، وإبراهيم رجب الشحات ، ومحمد أديب جمران .

(٥) حققه ياسين السوّاس ، وطبع في جامعة أم القرى بمكة سنة ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .

(٦) وكان كتاب « شرح الإيضاح » تحقيقاً ودراسة موضوع رسالة الدكتوراه التي تقدم بها د . يحيى مير علم إلى جامعة دمشق سنة ١٩٩٢م .

(٧) انظر مثلاً كتاب « العكبري ، سيرته ومصنّفاته » . د . يحيى مير علم .

في أسلوبه الذي بقي الوضوح إحدى سماته .

وكذلك ظهرت في آثاره عنايته الظاهرة بالعلّة والتعليل في الأحكام النحوية وما إليها حتى ظهرت العلّة عنواناً لبعض كتبه « كاللباب في علل البناء والإعراب » ، ولقد عدّوا من كتبه كتاباً اسمه « الإعراب عن علل الإعراب » وهو من كتبه التي لم تصل إلينا .

ومن الجدير بالذكر ، ونحن نتحدث عن العكبري أن نذكر ملاحظات يتصل بعضها بالعكبري نفسه ، ويتصل بعضها الآخر بما كتبه عنه الدارسون ، وما صحّحه الباحثون المحدَثون من أوهام السابقين وأخطائهم .

أما ما يتصل بالعكبري نفسه فهو أن بعض الذين كتبوا عنه اتّهموه بعدم الدقة فيما ينقله من أقوال وآراء ، وفيما ينسبه منها ومن الشواهد إلى غير أصحابها ، وذلك عندنا أمر لا يعود في نظرنا إلى الثقة أو عدمها بالرجل ، أو إلى أمانته بقدر ما يعود إلى علّته ؛ فهو كفيف يملي مؤلَّفاته من ذاكرته ، وليس مستبعداً وهو ذو المحفوظ الغزير والاطلاع الواسع أن تلتبس عليه نسبة الآراء أو الشواهد إلى أصحابها . ولعله لتلك العلّة نفسها نرى العكبري يستغني أحياناً كثيرة عن ذكر الأسماء فينسب الآراء إلى (بعضهم) أو إلى (آخرين) أو إلى (قوم) ، أو يستغني عن توضيح النسبة إلى القائل بالتعبير عنها بالفعل المبني للمجهول ، ونراه لذلك أيضاً يختصر النصّ الذي ينقله ويجتزئ بقسم منه ، وقد يكتفي بالإشارة إليه أو ذكر عنوان يدلّ عليه . ولعل هذا الأمر يدعو الذين يحققون كتاباً لمؤلّف ضرير أن

يكونوا حذرين في تحقيق ما يرويه أو ينقله منسوباً إلى قائله ، وأن يحاولوا توثيق نقوله ، والتأكد من نسبة الآراء والشواهد إلى أصحابها .

وأما ما يتصل بما كتبه الدارسون عن العكبري وصحّحه المحدَثون فهو ما كان شائعاً من وصفه بالنحوي الكوفي ، ونسبة مذهبه في النحو إلى الكوفة من ناحية ، ونسبة شرح ديوان المتنبي إليه من جهة ثانية ؛ فلقد جعله محمد الطنطاوي صاحب كتاب « نشأة النحو » نحوياً كوفياً ، ادَّعى أن النزعة الكوفية فاشية في كتبه !! وتردّد هذا القول عند كثيرين ممن كتبوا وحاضروا عن العكبري ، كما تردّدت نسبة شرح المتنبي إليه حتى إن واحداً من أفاضل الذين قرأت عليهم وأخذت عنهم كلّفني مرّة أن أقرأ شرح ديوان المتنبي للعكبري ، وأن أستخلص منه كل ما يدلّ على نزعته الكوفية من آراء وتعليقات نحوية !

وظلّت هذه الفكرة عن العكبري تتردّد على ألسنة الدارسين حتى ظهرت كتب أبي البقاء التي أظهرت حقيقة توجّهه وانتسابه بوضوح لا لبس فيه إلى البصريين ؛ ظهر ذلك جليّاً فيما كتبه العكبري في الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين ، وفيما كتبه في « اللباب في علل البناء والإعراب » وفيما كتبه في « شرح الإيضاح » على نحو ما اتّضح ذلك للمحقّقين[1] .

---

(١) أثبت ذلك د . غازي طليمات أحد محققي « اللباب في علل البناء والإعراب » ، وصاحب البحث المنشور في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي بعنوان « مذهب أبي البقاء العكبري في النحو » . كما أثبته بتفصيل ضاف د . يحيى مير علم في كتابه « العكبري » ص٦٢ وما بعدها ، و١١٣ .

وأما نسبة شرح ديوان المتنبي إلى العكبري فقد أثبت بطلانها الأستاذ مصطفى جواد ، وتتابع الدارسون والباحثون على تأييد ما قاله من نسبة الشرح إلى ابن عدلان[1] .

ونلحق بهذه الملاحظات ملاحظة أخرى قد تكون سبباً لبعض أوهام تتصل بالعكبري ونسبة بعض الكتب إليه ، وهي أن هناك آخرين من العلماء نسبوا إلى عكبرا كعمر بن إبراهيم العكبري المتوفَّى نحو ٣٢٩هـ ، وكعبد الله بن محمد العكبري المتوفى سنة ٥٥٠هـ . وقد نبّه صاحب كتاب « العكبري » على « وهم المحدَثين في مصنّفات أبي البقاء العكبري » ، وذكر ما لا تصحّ نسبته إليه[2] .

* * *

(١) المجلد ٢٢ من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ص ١١٠ .

(٢) العكبري ص١٤١ .

نحويّون مُحدَثون

١ ـ حفني ناصف

١٢٧٢ ـ ١٣٣٨هـ = ١٨٥٦ ـ ١٩١٩م

حفني بن إسماعيل ناصف ، قاض وأديب وشاعر ، مصري أزهري ، ولد في القليوبية ، وبرع في القضاء وعمل فيه ، وبرع في العربية ، وعيِّن مدرساً لها ثم صار مفتشاً للغة العربية .

كان ذا نشاط وطني واجتماعي ؛ شارك في الثورة العرابية وكان من خطبائها ، وزار كثيراً من البلاد العربية والأوربية ، وحين أنشئت الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨م أسندت إليه إدارتها .

كان محباً للناس ، شديد الصلة بالعلماء والأدباء ، وكان صديقاً لشاعر الشعب حافظ إبراهيم . وهو والد الأديبة « باحثة البادية » توفي بالقاهرة .

له كتاب « تاريخ الأدب » أو « حياة اللغة العربية » و« مميّزات لغات العرب » . وله ديوان « شعر حفني ناصف » .

شارك في تأليف كتاب « الدروس النحوية » في أربعة أجزاء ، واشترك معه في تأليفه كل من محمد دياب ، ومصطفى طموم ، ومحمود عمر .

كما شارك في كتاب « دروس البلاغة » واشترك معه في تأليفه كل

من محمد دياب ، ومصطفى طموم ، وسلطان محمد . وفي سنة ١٩٠٥م عُدّل الكتابان وجعلا كتاباً واحداً باسم « قواعد اللغة العربية » لتلاميذ المدارس الثانوية ، واشترك في تأليفه كل من حفني ناصف ، ومحمد دياب ، ومصطفى طموم ، ومحمود عمر ، وسلطان محمد . ثم طبع ثانية في سنة ١٩٠٩م، مصحّحاً بمعرفة الشيخ حمزة فتح الله ، مفتش اللغة العربية في وزارة المعارف . . وحظي هذا الكتاب بشهرة وانتشار في عصره ، وأعاد نشره الشيخ محمد علي طه الدرّة مع شروح وتعليقات وإعراب للأمثلة ، وسمّى طبعته الجديدة « فتح الوهّاب في القواعد والإعراب » . .

والكتاب في أربعة أجزاء وضعها المؤلفون سلسلة يرتقي الطالب فيها من جزء إلى جزء حتى تتمّ الكتب الأربعة .

وقد وصفها المؤلفون بقولهم: « يرتقي الطالب فيها من دائرة إلى أخرى أوسع نطاقاً وأكبر إحاطة حتى ينتهي الدارس إلى هذا الكتاب (أي إلى الجزء الرابع) فيثبت به ما فات من القواعد، ويستدرك ما بقي من الفوائد، ويخرج منه وقد أتى على أصول النحو أربع مرات، وهي سنّة جديدة في التعليم، وبدعة حسنة في الترتيب أقدمنا على سلوكها بعدما هدتنا التجارب إلى أنها أقرب طريقة تدني المطالب للطالب من مكان سحيق ، وتؤدي إلى استحضار العلم على وجه لا تشذّ معه قاعدة ، ولا تندّ عن ذهن المتعلّم بعد التعليم شاردة » .

وقد كان عارفو الكتاب من أساتيذنا وغيرهم يُجمعون على أنه من أكثر كتب النحو إيجازاً وفائدة في العصر الحديث . والحق أنه

خلاصة للنحو لا يفوت منه على الطالب معها شيء ذو أهمية ، وأنه من أحسن كتب النحو الحديثة دقة وصحّة وانضباطاً ، وأنه جامع كافٍ لا تنقصه سوى الشواهد ، فإذا أغناه دارسه بها كان من أحسن كتب النحو الحديثة وأغناها عن المطوّلات .

* * *

٢ ـ مصطفى الغلاييني

١٣٠٣ ـ ١٣٦٤هـ = ١٨٨٦ ـ ١٩٤٤م

مصطفى بن محمد سليم الغلاييني ، ولد في بيروت ومات بها ، كان كاتباً وخطيباً وشاعراً ، أتقن علم النحو ودرّسه وألّف فيه . تلقى علومه في لبنان ، وأخذ عن عدد من علماء عصره كالشيخ صالح الرافعي ، والشيخ عبد الرحمن الحوت ، والشيخ عبد الباسط الفاخوري . وسافر إلى مصر وصحب الشيخ محمد عبده وأخذ عنه وتتلمذ له .

وكان الشيخ الغلاييني جمّ النشاط ، أصدر جريدة « النبراس » وشارك في الحياة العامة ، دخل السجن ، وعمل مع جمال باشا ثم عمل مع الحكومة العربية التي شكلها الملك فيصل ، وتقلّد كثيراً من المناصب المدنية والعسكرية في لبنان ودمشق والأردن ، واستقرّ قاضياً شرعياً في بيروت إلى أن توفي . وانتخب عام ١٩٢٧م عضواً مراسلاً للمجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) في دمشق .

ألّف عدداً من الكتب ؛ منها : « نظرات في اللغة والأدب » و« عظة الناشئين » و« الإسلام روح المدنيّة » و« لباب الخيار في مسيرة النبيّ المختار » و« الثريّا المضيّة في الدروس العروضيّة » . و« أريج الزهر » وهو مجموعة مقالات ، و« رجال المعلّقات

العشر » وديوان شعر ، وغيرها .

وأما كتابه النحويّ « جامع الدروس العربيّة » فهو أشهر كتبه وأكثرها انتشاراً ، ألّفه عام ١٩١٢م في ثلاثة أجزاء ، وما زالت طبعاته تتوالى إلى اليوم ، وقد جعلت الأجزاء الثلاثة مجلداً واحداً .

وكانت طبعات الكتاب في حياته خيراً منها بعد وفاته لكثرة ما وقع فيها من الخطأ المطبعي .

وضع الشيخ الغلاييني في كتابه « الجامع » خلاصة علمه وخبرته في علم النحو والتأليف فيه ؛ لأنه ألّفه بعد كتابه النحوي المسمَّى « الدروس النحوية » ، وهو كتاب مدرسي وضعه للمدارس الابتدائية في أربعة أجزاء ، وللمدارس الثانوية في ثلاثة أجزاء ، فكان سلسلة نحوية متدرّجة تقبّلها المعلمون والطلاب في عصره بقبول حسن ، وانتشرت انتشاراً واسعاً . ثم تابع الشيخ تأليفه في النحو فوضع « جامع الدروس العربية » لمن هم فوق المرحلة الثانوية من الطلاب ، وضمّنه قواعد النحو والصرف والإملاء . قال الغلاييني في مقدمة كتابه « الجامع » إنه جمع فيه ما لا يسع الأديب جهله ، وإن فيه ما تدعو إليه الحاجة من القواعد والفرائد ، فجاء كتاباً جامعاً صحيحاً فيه الكفاية للأدباء ودور المعلمين وطلاب الصفوف العالية .

ولعل الغلاييني من أسبق المؤلفين المحدَثين إلى الطريقة الجيّدة التي اتبعها الأستاذ عباس حسن في كتابه الكبير « النحو الوافي » من إخراج الكتاب بحرفين أو جعل الحروف بحجمين ؛ كبير للقواعد والأصول ، وصغير للشرح والتعليق أو للزيادة والتفصيل ، إلاَّ أن

الغلاييني جعل ذلك ضمن المتن ولم يفصله عنه على حين جعله صاحب النحو الوافي قسماً مستقلاً بنفسه تحت عنوان « زيادة وتفصيل » .

وقد لبَّى كتاب « جامع الدروس العربية » في عصره حاجة لم يقم بها غيره نظراً لما جاء عليه من شمول للموضوعات النحوية والصرفية والإملائية ، ومن سهولة في اللغة ، ووضوح في الأداء والعرض ، وذكر للشواهد والأمثلة .

* * *

٣ ـ محمد سليم الجندي

١٢٩٨ ـ ١٣٧٥هـ = ١٨٨٠ ـ ١٩٥٥م

محمد سليم بن محمد تقي الدين بن محمد سليم الجندي ، ولد في معرّة النعمان ، وهي مدينة صغيرة تقع شمال مدينة حماه ، وفيها قبر أبي العلاء المعرّي ، وهو الشاعر الذي أحبّه الجندي وحفظ الكثير من شعره ، وعني بحياته وأخباره وآثاره .

تعلّم الجندي القرآن على شيوخ بلدته ثم دخل المدرسة الحكومية (المكتب الرشدي) ، وتلقّى عن الشيخ صالح رمضان وابنه دروساً في «الآجرومية» و«شرح الغاية» للقزويني في فقه الشافعية، وقرأ النحو والقرآن والتجويد على الشيخ حسن مطر المعرّي أشهر المقرئين في بلدته . حفظ «متن العوامل» و«الإظهار» للبركوي ، و«الكافية» لابن الحاجب ، وألفيّة ابن مالك وغيرها من متون النحو والمنطق والتوحيد والفرائض ، وأولع بالشعر حفظاً ونظماً ؛ وحفظ الكثير من شعر المعرّي وغيره ، ونظم الشعر وهو فتى دون الخامسة عشرة .

وحين بلغ الجندي العشرين من عمره صحب أباه إلى دمشق حيث استقرّ ، وقرأ الفقه الحنفي على الفقيه الشيخ شكري الأسطواني (ت ١٩٥٥م) مفتي الشام ؛ درس عليه الجندي ـ في المدرسة السميساطية التي يلقي دروسه فيها ـ كتاب « مجمع الأنهر شرح ملتقى

الأبحر » و« شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك » و« شرح السراجية في الفرائض » . وقرأ على الشيخ عبد القادر بدران (ت ١٩٢٧م) وهو فقيه أصولي ، اشتغل بالتدريس والتأليف ، وعني بآثار مدينة دمشق ، درس عليه الجندي علوم البلاغة والعروض . وأخذ عن الشيخ عطا الكسم (ت ١٩٣٨م) وهو فقيه حنفي ، تولّى الإفتاء في دمشق ، وجلس للتدريس في أماكن كثيرة من دمشق ، ودرّس علوماً مختلفة ، أخذ عنه الجندي الفقه والأصول . وقرأ على محدّث الشام الشيخ بدر الدين الحسني (ت ١٩٣٥م) كتباً في التوحيد والأصول . وقرأ على الشيخ حسين الشاش علوم الآلة وبعض كتب البيان والمنطق .

بدأ الجندي العمل في دمشق سنة ١٩١٨م إذ عُيِّن منشئاً[١] في وزارة الداخلية ، ثم رُقّي إلى مميّز . وانتخب عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) في ١٣/ ٩/ ١٩٢٢م . وفي عام ١٩٢٤م انتقل إلى مدرسة التجهيز (مكتب عنبر) مدرّساً للنحو والأدب ، ولمّا تأسَّست مدرسة الآداب العليا التي كان مديرها شفيق جبري تولّى فيها تدريس النحو ، وكان من تلاميذه في مكتب عنبر الشيخ الأديب علي الطنطاوي ، والشاعر أنور العطّار ،

---

(١) المنشئ وظيفة أوجدتها الحكومة العربية الواعية في عهد فيصل ، وجعلت في كل وزارة من وزارات الدولة منشئاً يصوغ الرسائل ويدقق كل ما يصدر عن الوزارة من قرارات وبلاغات وتعميمات حرصاً على سلامتها لغةً ونحواً وأسلوباً . وكان المنشئ المتفوّق يرقَّى إلى مميّز ، وقد بلغ هذه الرتبة سليم الجندي ، وعز الدين التنوخي . وكان أستاذنا شفيق جبري أول أمره منشئاً في وزارة المعارف .

والنحويّ سعيد الأفغاني ، كما كان من تلاميذه زكي المحاسني ومحمد المبارك وجميل سلطان وغيرهم . وكُلِّف الأستاذ الجندي إدارة الكلية الشرعيّة ، ثم أحيل على التقاعد سنة (١٩٤٠م) لبلوغه الستين من عمره . ومنح في سنة ١٩٤١م وسام الاستحقاق تقديراً لجهوده في خدمة اللغة العربية .

كان الجندي معروفاً بالتديّن ، والتواضع ، وحبّ الناس ، علّم طلابه العربيّة نحواً وأسلوباً ، كما علّمهم حبّها ، وطارت شهرته العلمية ، وتوالت شهادات أهل عصره بالثناء عليه فضلاً وخلقاً وعلماً ؛ قال الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي ووزير المعارف بعد أن حضر درساً له في النحو : « سبحان الله ، كأن النحو مطروح بين يديه ! » وقال تلميذه الشيخ علي الطنطاوي في حفل تأبينه : « لم يبق تحت أديم السماء من هو أعلم بلسان العرب لغة واشتقاقاً ونحواً وبلاغة وعروضاً ورواية وضبطاً ، ولا من هو أوفىٰ لها وأغير عليها منه » .

كانت دروسه يسودها الوقار والجدّ ، ولا تخلو من طرفة تلطِّف جوّها . عُرف بتعصّبه للأسلوب العربي القويّ ، وبكراهته للركّة والهلهلة . وتميّز من بين أقرانه وزملائه في عصره بصبره على الكتابة والتأليف ، والعكوف على الإنتاج والتصنيف .

ومن آثاره :

للأستاذ الجندي رحمه الله آثار كثيرة ؛ كتب ورسائل مؤلَّفة ، وكتب محقَّقة ، ومقالات ؛ أما الكتب والرسائل فبعضها مطبوع ،

وبعضها مخطوط مفقود ـ حتى الآن ـ وقد ضاعت كل محاولاتي للوقوف على شيء منها في المكتبات العامة والخاصة ! . وأما المقالات فمعظمها منشور في مجلة المجمع العلمي العربي ، ومجلة الهلال ، ومجلة الرابطة الأدبية وغيرها .

والمطبوع من آثاره هو :

١ ـ « إصلاح الفاسد من لغة الجرائد » طبع سنة ١٣٤٣هـ .

٢ ـ « تاريخ معرّة النعمان » في ثلاثة أجزاء ، طبعته وزارة الثقافة بتحقيق عمر رضا كحّالة سنة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٧م .

٣ ـ « الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره » في ثلاثة أجزاء ، طبعه المجمع العلمي العربي ، بتعليق عبد الهادي هاشم ، سنة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤م .

٤ ـ « رسالة في الطُّرُق » وألحق بها « رسالة في الأودية ومسايل المياه » ذكر فيها أسماء الطرق وأقسامها وأنواعها المختلفة في السهول والجبال والأودية ، وهي منشورة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .

٥ ـ « رسالة في الكَرْم » تحدّث فيها عن الكرم في جميع مراحله من وقت غرسه إلى نضجه وأكله ، أو عصره وشربه ، ذاكراً اسمه في كل طور من أطواره ، وهي منشورة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .

٦ ـ « رسالة الملائكة » لأبي العلاء المعرّي ، حقَّقها وفسّر شواهدها ، وترجم لأصحابها ، طبعها المجمع العلمي العربي في

مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٩٤٤م ، ثم أعادت دار صادر ببيروت طباعتها سنة ١٩٩٣م .

٧ ـ « عُدَّة الأديب » في ثلاثة أجزاء ، ألّفها بمشاركة الشيخ محمد الداودي . ـ وهو مدرّس للعربيّة والتربية الإسلامية ، درّس في المدارس الابتدائية ودار المعلمين في دمشق ، توفي سنة ١٩٢٧م ـ وهي رسائل مدرسية جمعا فيها من كلام الحكماء والبلغاء والشعراء طائفة جيّدة ، وشرحاها . طبعت سنة ١٣٤٥هـ .

٨ ـ « عُمْدة الأديب » سلسلة كتب جعل كل كتاب منها خاصّاً بواحد من الأدباء ، الكتّاب أو الشعراء ، جمع فيه أخباره وبعض أشعاره ، وتحدّث عن أدبه . صدر منها « امرؤ القيس »[١] و« عبد الله ابن المقفّع »[٢] و« النابغة الذبياني » و« عليّ بن أبي طالب »[٣] .

وبقيت سائر أجزاء السلسلة مخطوطة ، ذكر الأستاذ الأفغاني منها رسائل عن جرير والفرزدق والأخطل وعمر بن أبي ربيعة ، وعن أبي تمام والبحتري وأبي نواس ، وهي في جملة آثاره المفقودة التي لم أعثر عليها !

وممّا لم يطبع من آثاره :

* رسالة « الأطعمة والأشربة في بلاد الشام » .
* رسالة « الأمثال العامية في بلاد الشام » .

---

(١) صدر عن « مكتب النشر العربي » .

(٢) طبع في مطبعة الترقّي بدمشق سنة ١٣٠٠هـ ثم سنة ١٣٥٥هـ .

(٣) طبع في مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٤٤م .

* رسالة « العادات في بلاد الشام » .

* « رسالة في المعلّمين » .

* رسالة في أحكام « ما ، ومَن » استوفى فيها كل ما يتعلّق بهما من أحكام ، وهي مجموعة دروسه التي ألقاها على الطلاب في مدرسة الآداب العليا .

* كتاب « مُرفد[1] المتعلّم ومرشد المعلِّم » وهو كتاب في النحو ، جمع فيه المؤلف ما تفرّق من مسائل النحو ، وضمّ فيه النظير إلى نظيره ، بأسلوب سهل ميسَّر كما وصفه الأستاذ الأفغاني وقال إنه لم يتمّه .

* كتاب « المنهل الصافي في العروض والقوافي » نقل الأستاذ الأفغاني عن أستاذه مؤلف الكتاب أنه جمع فيه مسائل لم تجتمع في غيره ، ورتّبها ترتيباً مسلسلاً محكماً ، وهو في غاية الإيضاح ، كثير الشواهد ، وأنه انتهىٰ وأُعدَّ للطبع .

* * *

---

(١) أرفد : أعان .

٤ ـ ياسين طربوش

١٣٢٢ ـ ١٣٩٩هـ = ١٩٠٤ ـ ١٩٧٧م

ياسين بن سليم طربوش ، ولد وعاش طفولته الأولى في النبك ـ وهي مدينة في القلمون ، بين دمشق وحمص ـ ولمّا أتمّ تعليمه الابتدائي انتقل إلى دمشق ودخل (مكتب عنبر) وهو الثانوية الوحيدة في سورية آنذاك ، ولقي فيه من أعلام اللغة والنحو والأدب : الشيوخ عبد القادر المبارك وسليم الجندي ومحمد البزم وغيرهم ، ثم تابع دراسته في دار المعلمين وتخرّج سنة ١٩٢٣م وعيّن معلّماً في المدارس الابتدائية ، وجمع بين التدريس والدراسة ؛ وانتسب إلى مدرسة الآداب العليا بالجامعة السورية ، وأصبح بعد تخرّجه منها أستاذاً في ثانوية دمشق « التجهيز الأولى » التي حملت فيما بعد اسم « ثانوية جودة الهاشمي » .

وحين أنشئت ثانوية القلمون في النبك عام ١٩٤٩م وكان له فضل كبير في إنشائها انتقل إلى التدريس فيها .

وعاد في سنة ١٩٥٦ إلى دمشق ، حيث درّس في ثانوياتها ، وحاضر في عامي ١٩٥٧ و١٩٥٨ في كلية الآداب . وسافر إلى ليبيا منذ عام ١٩٦١م ليدرّس في الجامعة الليبية ببنغازي . وتوفي في دمشق سنة ١٩٧٧م .

عُرف الأستاذ طربوش بين زملائه وطلابه بغزارة العلم ، ورجاحة العقل ، وصلابة الرأي ، والجرأة والحزم والانضباط ، وعفة اليد واللسان ، كما اشتهر بالغيرة على أمّته ولغتها . كان أباً لطلابه يسأل عنهم ويرعاهم ويتفقّدهم ويُمدّ كلاً منهم بما يحتاج إليه من عون سرّاً وعلناً ؛ وكان يتصل بالنجباء والفقراء منهم يشجعهم ويأخذ بيدهم ، وله مع عدد منهم قصص لا تُنسى تدلّ كلّها على إنسانية رفيعة ونفس نبيلة . لقد كان معلماً ناجحاً ، ومرشداً مربّياً ، أحبّ العلم وعمل بكل طاقاته على نشره ، وكان شديد الرغبة في أن يضع كتاباً في النحو يقرّب العلم فيه إلىٰ الطلاب ، وبدأ بوضعه وسار فيه أشواطاً ، ولكن المنيّة عاجلته قبل أن يتمّه .

كان من همّه أن يرشد الطلاب إلى المصادر الأصيلة في العربية ، وأن يضع لهم كتاباً يكون مرقاة ترقى بهم من السهل الميسَّر إلى الكتاب المفصَّل ليتّصلوا بكتب التراث ويطالعوها بلا عناء . وقد سلك في سبيل ذلك مسلكاً فريداً في كتابه الذي وضعه وسمّاه « مسالك التراث في النحو والصرف » وهو الكتاب الذي لم يتمّه ، والذي طبع ونشر بعد وفاته بأكثر من ربع قرن !!

لقد كان غرضه أن يخدم العربية وينشر ثقافتها بأسلوب عصري عقلي ، ويدفع أبناءها إلى تحقيق الآمال التي تتطلع إليها أمّتهم ليواكبوا عصر الذرَّة وليلحقوا بركب الأمم المتقدّمة ـ كما قال ـ ، وكانت عنايته منصرفة إلى الفهم دون الحفظ ، وإلى اعتماد المعنى في تغليب الرأي والأخذ بالمذهب الأنسب . . معتمداً في سبيل

تحقيق ذلك على شرح الشاهد لفظاً ومعنًى وإعراباً .

وكان منهج الأستاذ طربوش في كتابه منهجاً فريداً بين المناهج فرادة مؤلِّفه بين المعلّمين والمؤلّفين ؛ قدّم النحو والصرف والإملاء في سبع عشرة حلقة التزم فيها منهجاً واحداً ، يبدأ في صدر الموضوع ببيت من الشعر مما يستشهد به ؛ يفسّر ألفاظه ، ويشرح معناه ، ثم يعربه مفردات وجملاً ، ثم يتناول موضوعات النحو التي تتصل بإعرابه فيفصّل فيها شرحاً للقواعد وبياناً للأحكام وإيراداً للشواهد من القرآن والشعر ذاكراً كل ما لا يجوز الجهل به ، غير ناسٍ أن يعزو كل رأي أو حكم إلى صاحبه بدقّة وأمانة . وإذا خشي أن يطول الشرح ترك قسماً من الموضوع النحوي الذي يشرحه إلى مناسبة ثانية في حلقة أخرى .

إن كتاب « مسالك التراث في النحو والصرف » كثير الفوائد ، ولكن طبعته على أناقتها جاءت كثيرة الأخطاء[1] .

* * *

(١) انظر تصحيح أخطاء الكتاب في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد (٨٣) الجزء (٤) .

٥ ـ عبّاس حسن

١٣١٨ ـ ١٣٩٩هـ = ١٩٠٠ ـ ١٩٧٨م

ولد عباس حسن في مدينة منوف من محافظة المنوفية ، ودخل كتّاب قريته ، فحفظ فيه شيئاً من القرآن الكريم ومبادئ الكتابة ، ثم التحق بالأزهر وأخذ فيه بعض علوم اللغة العربية ، ثم غادر إلى كلية دار العلوم وحصل على الإجازة (الليسانس) من قسم اللغة العربية عام ١٩٢٥م .

درّس عباس حسن في المدارس الابتدائية ثم في المدارس الثانوية ثم عُيّن مدرّساً للنحو في كلية دار العلوم ، وشغل فيها رئاسة قسم النحو والصرف ، وبقي فيها حتى أحيل على التقاعد لبلوغه الستين من عمره .

وفي عام ١٩٦٧م انتخب عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وكان من أبرز أعضائه نشاطاً ومشاركة في أعمال المجمع العلمية ، ومن أكثرهم غيرة على اللغة العربية .

له من الكتب كتاب « اللغة والنحو بين القديم والحديث » وكتاب « المتنبي وشوقي » . وأما أهمّ آثاره فكتابه الضخم « النحو الوافي » الذي أصدره في أربعة أجزاء .

و« النحو الوافي » موسوعة نحوية فيها ما يحتاج إليه طالب

النحو ، وفيها تفصيل وزيادة للمستزيد . ويمكن القول إن كتاب « النحو الوافي » كتابان في كتاب واحد ـ كما يرى مؤلفه ـ أما أحدهما فهو المتن ، وفيه الموضوع النحوي بأصوله وقواعده ، وأما الثاني فقد جاء في آخر المتن مستقلاً ومغايراً بحجم حرفه تحت عنوان « زيادة وتفصيل » وهو قسم لا يحتاج إلى العودة إليه إلاَّ باحث مختصّ يريد التتبّع والاستقصاء .

يرى عباس حسن أن النحو دعامة العلوم العربية ، وقانونها الأعلى ؛ يُرجع إليه في جليل مسائلها وفروع تشريعها ، ولن تجد علماً منها يستقلّ بنفسه عن النحو أو يستغني عن معرفته ، أو يسير بغير نوره وهداه .

ويرى أن النحو وسيلة المستعرب ، وسلاح اللغويّ ، وعماد البلاغيّ ، وأداة المشرّع والمجتهد ، والمدخل إلى العلوم العربية والإسلامية جميعاً .

يؤرخ صاحب « النحو الوافي » لمسيرة النحو ، ويرىٰ الوهن يدبّ في النحو من مطلع القرن التاسع عشر فتظهر عيوبه ، وتزاحمه العلوم العصرية ، وتخلّفه وراءها مبهوراً حتى رآه الناس في الساقة من العلوم . ويعتقد أن النحو داخلته الشوائب منذ نشأته فوجب أن تمتدّ إليه الأيدي البارّة القويّة لتخلّصه مما شابه وتنهض به وترعاه وتعلي شأنه .

إنه سلخ من حياته سنين طويلة في تأليف كتابه « النحو الوافي » حتى اعتقد أنه تصدّى فيه لأكثر ما شاب النحو من مصنوع العلل

وضارّ الخلاف فأجهز عليها قدر استطاعته ، ورأى أنه جمع النحو في كتابين أحدهما موجز والآخر مفصّل ، وعرضه بأسلوب عصري يتميّز بالوضوح والإشراق ، بلا حشو ولا غموض ، واختار له الأمثلة الواضحة الناصعة ، متجنّباً تلك التي تتردد في كتب النحو والتي تكثر فيها الألفاظ الغريبة والمعاني البعيدة .

ولعل أبرز ما يمتاز به « النحو الوافي » أنه مرجع للمادّة النحوية يُعنى بعرضها النظري ، فلا يعرب إلا الكلمة التي يوضِّح إعرابها المثال الذي ذكره ، دون الخوض في التطبيقات العملية لأن غايته هي إعداد المادّة النحوية إعداداً مستوفى يستصفي أصولها النافعة ويستخلص قواعدها مما شابها محاولاً الابتعاد بها عمّا يراه زائفاً من العلل أو ضعيفاً أو ضارّاً من الآراء .

ويمتاز الكتاب بتقدير المؤلف لجهود القدماء وعلمهم وفضلهم وربطه جديده في كل مناسبة بقديمهم ، وإيراده لأبيات ألفية ابن مالك في أماكنها من حواشي الكتاب .

ويعدّ « النحو الوافي » موسوعة نحوية لا يعادلها كتاب من كتب النحو في العصر الحديث من حيث استيعابه وشموله ، وجودة تصنيفه ، وحسن عرضه للموضوعات والمسائل النحوية بلغة سهلة واضحة مشرقة .

* * *

٦ ـ سعيد الأفغاني

١٣٢٧ ـ ١٤١٧هـ = ١٩٠٩ ـ ١٩٩٧م

سعيد بن الحاج محمد جان الأفغاني ، هاجر أبوه من كشمير واستوطن دمشق وتزوّج فيها ، ورزق بابنه سعيد عام ١٩٠٩م .

تلقى العلم في مدارس دمشق الابتدائية ثم في مكتب عنبر ، وتابع تعليمه في مدرسة الآداب العليا بالجامعة السورية .

وأخذ عن بعض الشيوخ في دمشق كالشيخ أحمد النويلاتي ، وسليم الجندي ، وعبد القادر المبارك ، وكانت له لقاءات وجلسات مع الشيخ محمد الداودي ، والشيخ عبد الرحمن سلام ، والأستاذ خليل مردم بك ، والأستاذ محمد كرد علي ، والشاعر محمد البزم وغيرهم .

أما تلاميذه فلا يحصون لأنه درّس في مختلف المراحل التعليمية ، وظلّ يدرّس النحو في كلية الآداب بجامعة دمشق وحدها خمس عشرة سنة ، وكان من تلامذته فيها أحمد راتب النفاخ وعاصم البيطار وصالح الأشتر وعبد الكريم الأشتر وعبد الرحمن عطبة ومازن المبارك وفخر الدين قباوة وغيرهم .

بقي يدرّس العربية في المدارس الابتدائية ثم في الإعدادية إلى أن افتتحت كلية الآداب سنة ١٩٤٧م فدرّس النحو فيها ، وتولّى رئاسة

قسم اللغة العربية ، ثم عمادة الكلية . وأحيل على التقاعد حين بلغ الستين من عمره .

وبدأ نشاطه خارج سورية بعد تقاعده فدرّس في الجامعة اللبنانية والجامعة الليبية وجامعة الرياض .

قام في أثناء عمله الجامعي في دمشق بعدد من الزيارات ، فزار مصر غير مرّة ، وزارالمغرب وتونس وإيران وإنكلترة ، وكان همّه فيها أن يطلع على أقسام اللغة العربية في جامعاتها ، وأن يطلع على ما في مكتباتها من نفائس الكتب والمخطوطات . انتخب في عام ١٩٦٠م عضواً مؤازراً في المجمع العراقي ، وانتخب في عام ١٩٧٠م عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وكان له في جلساته ومؤتمراته نشاط ظاهر . وفي عام ١٩٩١م انتخبه مجمع القاهرة عضواً عاملاً .

ألّف وحقّق عدداً من الكتب في النحو والتراجم والتاريخ .

أما كتبه في النحو فكتب تدريسية جامعية ، وضعها على وفق مناهج الجامعات التي كان يدرّس فيها . على أنه كانت له آراؤه في اللغة وفي بعض مسائل النحو ، ولكنه لم يكن يذيعها على طلابه في دروسه ، ولم يكن يثبتها في كتبه التدريسية ، بل كان ينشرها في محاضراته ومقالاته المجمعيّة ، وقد نشرت بعد ذلك في الكتب التي تحدّثت عنه أو جمعت آثاره[١] .

---

(١) سعيد الأفغاني لمازن المبارك . وسعيد الأفغاني وجهوده في علم العربية ليوسف حوارنة . والأستاذ سعيد الأفغاني : عصارة فكر وتجربة حياة « مقالات بقلمه » للأستاذ حسن إسماعيل مروة .

ومن آثاره : « مذكرات في قواعد اللغة العربية » و« الموجز في قواعد اللغة العربية » و« أصول النحو » و« من تاريخ النحو » و« من حاضر اللغة العربية » و« أسواق العرب » و« الإسلام والمرأة » و« عائشة والسياسة » .

ومن تحقيقاته « توجيه إعراب أبيات ملغزة الإعراب » للفارقي ، و« حجة القراءات » لأبي زرعة ، و« تاريخ داريا » للخولاني ، وأجزاء من « سير أعلام النبلاء » في ترجمة السيدة عائشة ، وترجمة ابن حزم ، و« الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة » للزركشي ، و« الإغراب في جدل الإعراب » و« لُمع الأدلّة » لابن الأنباري ، وغيرها .

ولعل أجمع ما كتب عن آثاره من كتب ومقالات ما جاء في كتاب « سعيد الأفغاني : عصارة فكر ، وتجربة حياة ، مقالات بقلمه » .

فقد كان ينشر مقالاته في مجلات كثيرة متباعدة في الزمان والمكان ، ويضمّنها آراءه في كثير من القضايا اللغوية والنحوية والتاريخية والاجتماعية .

عرف الأستاذ الأفغاني بإيثاره الجدّ في حياته كلها ، كما عرف باستقامته وصلابته وتعبيره عن آرائه بصراحة وجرأة ، وبميله إلى السخرية في نقده وتعليقاته .

أصيب في أواخر حياته بضعف في سمعه وبصره ، ومات في مكة المكرمة ودفن فيها .

* * *

٧ ـ فاضل السامرَّائي

الأستاذ السامرائي حيّ أسأل الله له البركة في العمر والصحة والقوة والاستمرار في العطاء ، ولم أكن لأكتب عنه لولا كثرة السائلين عنه من الزملاء والطلاّب ، فلقد اطّلع بعضهم على بعض كتبه ، وشاهد الكثير منهم مقابلاته التلفازية ، واستولى الرجل على إعجابهم ، فراحوا يكثرون من السؤال عنه وعن اختصاصه ومكان عمله وعن صلتي به حين كنت أعمل في الإمارات .

لقيته في بعض الأمسيات الرمضانية ، وهي جلسات تبدأ عادة بالإفطار وغالباً ما تنتهي عندما تحين صلاة العشاء ، ولقد خرجت من لقائه بأنه عالم محيط بالعلم الذي يتحدث فيه ، وأنه لا يتحدث إلا عن علم يعرفه ، ولا يتحدث في المجالس إلا حيث يحسن الكلام أو حين يُسأل ، وليس من أولئك الذين يخطفون أوقات المجالس فلا يتركون لغيرهم مجالاً للكلام ، إنه هادئ كل الهدوء ، متواضع كل التواضع ، تجلّله هيبة العلم ووقاره ، يرتجل الكلام ولكن عقله من وراء ارتجاله ، وفكره في ألفاظه ؛ فما ينطق من لفظ إلا ومعه فكرة ، يبطئ ليغربل الألفاظ ويختار منها الأنسب والأليق لمكان اللفظ في الجملة ، كأنه صائغ يصوغ الجملة لتكون واضحة مبينة مصيبة للمعنى الذي يريد .

وبعد ، فهو فاضل بن صالح السامرَّائي ، نسبة إلى سامرَّاء التي ولد فيها سنة ١٩٣٣م ، تعلّم قراءة القرآن الكريم كما تعلّم الكتابة في طفولته ، وأنهى دراسته الابتدائية والثانوية في المدارس الرسمية في سامرّاء ، وحصل على الشهادة الثانوية سنة ١٩٥٢م .

تابع الدراسة الجامعية في بغداد ؛ فأنهى في « الأعظمية » دورة لتخريج المعلّمين ، وانتسب في عام ١٩٥٤م إلى كلية التربية ، ولمّا كان متفوّقاً في اللغتين العربية والإنكليزية قُبل في قسم اللغة الإنكليزية ، فلم يصادف هذا القبول هواه إذ كان يرغب في الانتساب إلى قسم اللغة العربية ، فبذل جهده حتى استطاع أن يغيّر القسم الذي قبل فيه إلى القسم الذي يرغب فيه .

نال من قسم اللغة العربية درجة (الليسانس أو البكالوريوس) الإجازة في سنة ١٩٥٨م . ثم حصل على الماجستير من جامعة بغداد في سنة ١٩٦٥م وكان موضوع رسالته للماجستير « ابن جني النحوي » وعُيّن على أثر ذلك معيداً في القسم الذي تخرّج فيه .

وأتمّ دراسته العليا في مصر حيث حصل على درجة الدكتوراه من جامعة عين شمس بالقاهرة في سنة ١٩٦٨م ، وكان موضوع رسالته « الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري » .

وبقي السامرائي مدرّساً في كلية التربية بجامعة بغداد حتى سنة ١٩٧٢م ، ثم انتقل للتدريس في كلية الآداب بالجامعة نفسها . ثم أصبح عميداً لكلية الدراسات الإسلامية .

درّس في الكويت عام ١٩٧٩م وما بعده ثم عاد إلى العراق وعيّن

عام ١٩٩٦م خبيراً في لجنة الأصول في مجمع اللغة العربية العراقي . وأحيل للتقاعد عام ١٩٩٨م .

عمل الأستاذ السامرائي بعد إحالته على التقاعد في دولة الإمارات العربية المتحدة ، فدرّس في جامعة عجمان ثم في جامعة الشارقة ، وعاد سنة ٢٠٠٤م إلى العراق ودرّس في « الأعظمية » سنتين ليستريح بعدهما من العمل الجامعي .

وكان ذا نشاط إعلامي يعرفه متابعو حلقاته في تلفاز الشارقة .

له عدد من الكتب منها « نبوّة محمد ﷺ من الشك إلى اليقين » و« أبو البركات بن الأنباري ودراساته النحوية » و« لمسات بيانية » و« بلاغة الكلمة في التعبير القرآني » و« الجملة العربية ، تأليفها وأقسامها » وله كتابان متميّزان أحدهما « معاني الأبنية في العربية » والآخر « معاني النحو » وهو كتاب استغرق تأليفه عشر سنوات من عمر صاحبه . ولعل عنواني هذين الكتابين الأخيرين وما جاء فيهما من تصريح بـ « المعاني » يقفنا على ما يمتاز به الأستاذ السامرائي من بين النحويين وهو جودة العرض ووضوح الفكرة واهتمامه برعاية المعنى رعاية خاصّة تفوق رعاية الصناعة اللفظية التي هي موضع اهتمام الكثيرين من النحاة .

إنه تلميذ مخلص لشيخه ابن جني ـ صاحب موضوعه في رسالة الماجستير ـ الذي يرى أنه إذا تجاذب المعنى والإعراب فتمسك بالمعنى ولا تأخذ من وجوه الإعراب إلا ما يناسبه .

إن تقليب وجوه الإعراب وتعدادها وبيان أوجه جوازها صناعة

نحوية يراد منها عند أكثر النحاة تدريب الطلاب وتنشئة ملكاتهم النحوية ، أو إظهار براعة النحويّ في تشقيق الوجوه .

لقد كانت فكرة سيادة المعنى وظهور أثره في التركيب اللغوي هي الفكرة الظاهرة في كل ما كتبه السامرائي ، إنْ في كتبه النحوية أو الصرفية أو البيانية ؛ فكانت عنده للنحو معانيه ، وللزيادة في الأبنية معانيها ، وللأساليب البيانية في القرآن دواعيها . وإن النحوي الذي لا يحكم الربط بين صناعة اللفظ وداعية المعنى نحوي لا يؤتي درسُه أُكُلَه ، ولا يحقق غرضه .

ما الفائدة في تحفيظ الدارسين أنواع المعارف وهم لا يعرفون أين ينبغي أن يستعمل كل منها ؟! ما الفائدة من تعريفهم بالنكرة وهم لا يعرفون الداعي إلى تنكيرها في موضعها من الكلام ؟ وقل مثل ذلك في كل ما يتصل بالتقديم والتأخير ، وكيف يعرف الدارس استعمال حروف المعاني أو الأدوات مع الأسماء والأفعال إذا لم يكن عارفاً بمعانيها ؟ وماذا يفيده أن يعرف أن المزيد على الثلاثي بحرف يأتي على وزن أفعل وفعّل وفاعل إذا لم يعرف المعنى الذي تضيفه الزيادة إلى معنى البناء المجرّد . . . وهكذا .

إن الذين يذهبون إلى أن بعض ذلك تابع لعلم المعاني ، وعلم المعاني من البلاغة ، والبلاغة غير النحو ، مقصِّرون لأن علم المعاني هو علم معاني النحو ومعاني تركيب الجملة ، ومن لم يبيّن مع كل نوع دواعي استعماله ، ومع كل تركيب لغوي دواعي الذكر أو الحذف أو الترتيب في صياغته لا يمكن أن يكون نحوه نحواً مفيداً

ولا يمكن الدَّرس النحوي أن يحقق ثمرته وغرضه على يديه .

نسأل الله للأستاذ السامرائي البركة في العمر مع دوام الصحة ليستمرّ في عطائه ويدوم النفع به .

* * *

الفهرس

المقدمة ٥

نحويّون قُدَماء ١٥

١ ـ أبو عمرو بن العلاء ١٧

٢ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي ٢١

٣ – أبو القاسم الزجّاجي ٢٥

٤ ـ علي بن عيسىٰ الرمّاني ٣٠

٥ ـ عثمان بن جني ٣٥

٦ ـ أحمد بن فارس ٤٠

٧ ـ العُكبري ٤٤

نحويّون مُحدَثون ٥١

١ ـ حفني ناصف ٥٣

٢ ـ مصطفىٰ الغلاييني ٥٦

٣ – محمد سليم الجندي ٥٩

٤ ـ ياسين طربوش ٦٥

٥ ـ عبّاس حسن ٦٨

٦ ـ سعيد الأفغاني ٧١

٧ ـ فاضل السامرائي ٧٤

الفهرس ٧٩